

روايات (الهلال)

# محب

طبعة

عبد الفتاح الجمل







سلسلة  
شهرية  
لنشر  
القصاص  
العالمي

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال



رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود فاسم



عن النسخة

بوريا ١٤٠ ليرة ، لبنان ٢٧٥٠  
يرة ، الأردن ٢٠٠٠ فلس ، الكويت  
١٠٠ فلس ، السعودية ١٢ ريال ،  
ونس ٢ دينار ، المغرب ٢٥ درهم ،  
بحرين ١,٢٠٠ دينار ، الدوحة  
١ ريال ، الامارات ١٢ درهم ،  
جمهورية اليمنية ٣٥ ريال ،  
زة / القدس / الضفة ٢ دولار ،  
سقط ١,٢٠٠ ريال ، لندن  
١,٢٠٠ جنيه .

يناير ١٩٩٢ • رجب ١٤١٢ هـ  
NO . 517 JN 1992

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى واحد وعشرين جنيهاً فى ج . م .  
ع . تدفع مقدماً نقداً او بحواله بريدية غير حكومية  
وسبعة عشر دولاراً فى البلاد العربية . وخمسة وعشرون  
دولاراً لبقية دول العالم . والقيمة تسدد بشيك مصرفى لأمم  
مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية  
بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول  
: الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤  
الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتدئين  
سابقاً) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب :  
٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا :  
المصور - القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n  
فلكس : FAX 3625469



تأليف  
عبد الفتاح الجمل



دار الهلال

**الغلاف لوحة مهداة من الفنان  
عبدلى رزق الله**

الى أخى الحاج على  
أهدى هذا العمل ، منذ أن اسعفتنى ذاكرته فى القريب  
من الاحداث ، اما البعيد الموعغل فهو لى ، منذ أن جَنَحْتُ  
منى الملعونة وحرَنت ، ونامت فى الخط هناك ، وقد زحفت  
بأظلاف قطعانها المدينة ، والتهمت فى معدتها الزلِط ، من  
محب ، الإيقاع والملاح والنفس والنكهة<sup>(١)</sup> .

عبده

رائحة الفم .

حيات » ﴿ «

## فى سيرة محب

حدثوا فى رواية متواترة ، أن « مصر » كانت تتفسح فى شماليتها الأقصى ، وقيل تغس وتتفقد الأحوال ، وتتعرف إلى خلق الليل والنهار ، وقيل - وهو الأرجح - تمشى رجلها وقد خدرتا من طول خلود .

كانت تعقد يديها من خلف على عجزها ، وقد حباها الله فى ذلك الزمان المديد ، ساقين فى طول فرعى النيل ، حتى كناها القدامى « أم خطوة » .

وبينما كانت تهبع على ضفة النيل قرب دمياط كما يهبع الجمل ، إذ شرقت والراجح أن أحدا قد جاب فى سيرتها ، فعطست ومسحت بوزها بكمها وهى تتشهد ، وبأصول إبهامها مسحت عينها التى دمعت ، وتلفتت حولها ، فلما لم تجد من يقول لها : « يرحمك الله يا مصر » ، شمخت جانحة إلى اليمين ، رافعة إبهامها الأيسر ، تضغط به منخورها الأيسر تسده ، وفمها تطبقه ، وبعزم أمها وأبيها تنفخ ، وكالصاروخ يرتفع بربورها ، بربور مصر العزيز ، إلى أعلى عليين .

وعلى بعد كيلومترين وكسور من مجرى النيل - وكان هذا قديما معيار فتوة<sup>(١)</sup> - انحط البربور - ومن يومها لم يتزحزح - فى نقطة لم يكن لها أدنى اعتبار على خريطة مصر ، ولعله السبب فى كثرة أشجار المخيط<sup>(٢)</sup> العظيم بالمكان .

---

( ١ ) فعلها أحد خلفاء بنى أمية فى أول خطبة له ، إذ تنخم وتمخط وأطلق ، فالتصقت بسقف المسجد ، حتى يهابوه .

( ٢ ) ثمرتها فى حجم النبق ، بيضوية فى لون العاج عند النضوج ، تنزع قمعها وتضغط الأنبوبة ، فتندفق عجبتها فى فمك .



هذا أصلى وفصلى - أنا قرية محب - وأصل الفتى ماقد حصل .  
إى نعم بربور ، إلا أنه بربور مصر .

شعبى كسالى تنابله كالمساطيل ، يتكلمون بالكماشة ، يُعملون عقولهم  
الصغيرة كسلا لا نباهة ، أكثر مما يعملون سواعدهم .

يصيدون السمك بالجوابى<sup>(٣)</sup> . يلقون بها فى طريق التيار ، على أبواب البرابخ  
والعبارات والمضايق ، معترضة طريق السمك ، وكل صباح يعسونها ، بلا نزول  
إلى الماء أو بلل أو طعم أو هدة حيل ، بخطاف يلتقطونها ، يفرغون ما تحصل  
فيها ، وبالخطاف يعيدونها سيرتها ليس غير .

ويصيدون الطير بالمخيظ ، بعد معالجته حتى يصير كالغراء القوى ، يطلون به  
الغصن المعترض ، المغرى للطير أن يحط عليه ، فيلتصق به لا يغادره ، حتى  
يجنيه صاحب الشجرة مع مايجنى من ثمر .

يتوقون للجنة لسببين : ليكونوا فيها هم الكسالى « متكئين على الأرائك » ، ثم  
لأن « قطوفها دانية » أفواههم تتعامل معها بلا وساطة من رجل تتحرك أو يد  
تمتد .

أمس الأول حينما قدم نابليون غازيا ، نزل بجنوده إلى جارتى قرية الشُّعرا  
وقرية طريطر ، وتواترت أنباؤه قبل أن يصل ، أن جنديه يعلق قبعته على باب  
البيت من بيوت الشعاروة وهو يدخل ، حتى يتريث الشعراوى عن دخول بيته ،  
لأن الخواجة سوف يخلف له مافيه القسمة .

ولما وصل نابليون بجنوده إلى ساحتى ، وجد رجالى يصطفون فى القيظ بالقلل  
المنداة خارج مناسجهم ، فافتر ثغره ، ومضى بجنوده رأسا إلى دمياط الثغر .  
وليت رجالى مافعلوا ، إذن لكان لنسائى شعور الشعراويات وزرقة عيونهن ،  
ولما بارت بنت من بناتى .

باختصار أنا واحدة من آلاف القرى التى تلتزم الوقوف على ضفاف مجرى  
المياه ، والقرية عادة ما تنتعل اعتبارها من مقام هذا المجرى .

---

( ٣ ) الجابية ( الجُببية بلغة الناس ) من سلك ، ذات باب دائرى يضيق ، تدخل منه السمكة  
ويستعصى عليها الخروج .

أما أنا فأقع ولا فخر فى حُضن مصرف اسمه الخشبة ، المصرف الذى -  
اسم الله على قيمتكم - تبول فيه غيطان الزمام كلها ، وتقضى حاجتها ، فى غياب  
الدورة المائية ، وتروى منه فى حضرة الدورة .

ناسى بساطهم أحمدي ، ونفوسهم حلوة ، من نزيز الغيطان يأكلون  
ويشربون ، ويغسلون ويغتسلون ، والسبب أن التخصص - قناة للرى وأخرى  
للمصرف - شىء مكلف ، وأبعد عن شاربى من نجوم السماء .

ومحب اسم النبى حارسنى ، اسم فرعونى قح ، وعربى قراح ، وإن اختلف  
المدلول من عصر إلى ظهر ، فهو اسم من أسماء القادة المعروفين عند الفراعنة ،  
ومن أسماء العبيد عند العرب ، يفرح السادة لدى النطق به ، ويضىء لهم  
وجوههم .

بربور ومحب ، أنا على السنجة العاشرة .

وعائلة الزوايدة الذين يناون بأنفسهم فى مسكن منفرد بأقصى الغرب ، مع  
دوابهم وماشييتهم وأرضهم ، عندهم ثور ضخم له خوار يهز أرجائى ، والحاج  
أحمد كبير العائلة الله يرحمه - وكان قعر مجلس - يذكر ثوره ، الله يرحمه هو  
الآخر ، مستغرقا : وهواده كان تور ؟ دا كان جمل العيلة ، كان لما يشوفنى جاي  
من بعيد ، ينده ويقول : يا احمااااى ( أى يا أحمد ) .

أتدرون كيف مات الحاج أحمد ؟ بأن جرع زجاجة الدواء جملة بدل التقسيط  
المريح ، طلبا لعاجل الشفاء .

ومادما قد انزلقنا إلى هذه السيرة العطرة ، فإن عم عبده الشاعر أحد عميانى  
العماليق ، سوف يأخذ على خاطره إن لم نُجِب فى سيرته .

عم عبده هذا الذى يسحبه ابنه إلى المقابر ، يوزع عليها الراتب القرأنى ، لا  
يحطوله أن يُقيل<sup>(٤)</sup> إلا على باب بيته ، ورجل ممدودة إلى لحم الشارع ، والأخرى  
مثناة ترفع معها طرف الجلباب ، مصعرا عضوه العظيم ، للرجال يفضون مدعين  
أنهم لم يروا ، وللنساء يتنادين ويتغامزن ، والحاضرة تعلم الغائبات .



أليس المشهد بأوجهه هو وهم وهن بمستحق ، لاسيما وأن سيرة العضو  
المحترم ، من تحت إلى تحت ، أشهر معالمى السياحية ؟

أما أقصى الشرق ، حيث يفلح أرض العلوة عم محمد المغلاوى ، فقد مر به  
يوما أحد أنطاعى الوجهاء ، فسأله عبر الهري<sup>(٥)</sup> الفاصل :  
- إلا الجلة دى يا عم محمد ، صيفى واللاشتوى ؟  
رد عليه الفلاح الفصيح المغلاوى :  
- أدور يا حبيبى وتعا دوق .

وعم رخا الخفير ، ذو الساعد الأبيض المصفر كساق الجوافة ، إنه الحارس  
الليلى اللقطة ، إذ يحرسنى من داخل بيته لا يبرحه ، لا يقرب سريره أثناء نوبة  
عمله ، بل يظل طول الليل على قرافيصه ، وظهره إلى الحائط يكب وينعس ، تحت  
الرف الذى يصبر فوقه طربوشه الأسود الميرى ذا النحاسية النمرة ، تشع كلما  
هبت نسمة ، وحركت لسان اللمة الصاروخ<sup>(١)</sup> . وبندقيته المسندة إلى جانبه ،  
تلك التحفة الأثرية التى ينظف ماسورتها نهارا ، وحوله الأطفال يتسامرون معه  
وهو يعمرها بالبارود ثم بالخرقة ، ثم رؤوس المسامير أو قطع الرصاص التى  
يلملمها ، ثم يحبس بالخرقة ، وبالسبخ يدكدك فى كل مرحلة ، أكيد هى من عتاد  
محمد على العتيد .

وعند أول حس بمقدم الدورية ، ينقر عليه شباكه ثلاث نقرات ، أحد أهل  
الليل ، فتمتد يد إلى الطربوش من فوقه ، والأخرى إلى البندقية ينهض على  
حيله ، يصلح من شأنه ، ثم يبدأ وقته العصيب فى حياته كلها ، إذ كيف يخرج  
ليلا إلى دركه لملاقة الدورية وحده بلا أنيس ؟ لا يجرو . يخاف هو الخفير  
المسلح ، ويصطك جسمه كله ، وشعر رأسه يقف ، حتى سموه عم رخا القنفذ .  
ربما كان هذا هو السرف فى أن مغناطيس عم رخا ، لا يجذب أو ينجذب إلا إلى  
الصغار .

---

( ٥ ) قناة رى وصرف معا ، دون التربة وفوق القناة ، وفصحاها بضم الهاء .

( ١ ) زجلجة صغيرة بها وقود ، وبفوهتها لبوس من صفيح ، يتخلله فتيل ، يوحد ليخرج  
صاروخ الشعلة .



أما الخفير الآخر عبدالموجود ، الذى لايزنهر ويفنجل إلا ليلا ، فقد كان عائدا  
على عجلته من قرية الشعرا ، وأمامه على العجلة أحد ندمائه ، وكانا فى خط  
الاستواء من سطل الحشيش .

كانت العجلة تمضى بهما على جسر الترعة الشرقاوية ، والبدر أمام  
عبدالموجود يتربع على عرشه ، وقد ألقى بظل القنطرة التى سوف يعبرانها إلى  
يسارهما .

وإلى الظل كسر الخفير عبدالموجود ، وقد زين له الحشيش أنه الأصل .

وانفتحت لهما بمطيتهما ، باطن الترعة فى دوى عظيم .

أيامها دار أبنائى يقولون : الحكومة المسطولة . ضحك على دقتها الضل .  
ووقعها فى الترعة .

الوحيد الذى على رأسه الريشة ،  
حرية مطلقة فى التصرف ، وكلما كبرت  
مخالفته للساند ، اتسعت له ابتسامة  
الناس ، ذلك لأنه يعيش ولا يعمل ، لأن  
يديه أو ذهنه ، لم تتعفر بتراب العمل  
قط .

ركنت ساعة جيبه يوما ، ولأنها ساعته ، ولأنها مريضة ، لذا قام من الفور  
باستدعاء على الصافى أكبر وأشهر ساعاتى بدمياط ، فى عيادة خارجية .

ملتقى أهل الحظ بالمحافظة ومديرية الدقهلية المجاورة . طول الليل يحشش  
ويشرب ويمز ، ويصهل ويصهل فى حلاشب الصهبا ، وقبل الفجر ينفض المولد ،  
ليعتلى منئذنة النعمان ، يشجى الأذان النائمة ، وتنعش غبارته الأحلام . حتى إذا  
ماحان أذان الفجر ، وتقابل مع مؤذنه على سلم المنئذنة ، انصرف من الجامع  
رأسا دون أن يركعها .

وحينما يصلون فى شربهم إلى مرتبة الطينة ، يتمنى أحدهم ، ويأتى الإغراب  
فى طرائق الاستجابة ، قال متمنيهم يوما : نفسى أمص قصب .

وإلى أرض تزرع القصب ، نزل بهم من فوره ، ومن الفلاح اشترى حوضا



كاملا ، عاثوا فيه حشا ومصا ، ولما اتخموا تركه للناس سبيلا ، واستمرت ولائم  
المص أياما بلياليها .

هو طه أبو إسماعيل ، ابن الذوات الذى يبدد فى آخر زاده .

غابة من الغاب والحبال  
والسد<sup>(١)</sup> ، تغطي حافة ميدان اتخذ  
هيئة المثلث ، وزواياه الثلاث تؤلف  
مداخل الحصن ، وسيده الحاج محمد  
مراد الكبير ، وكل من فى الحصن  
مراد ، وجارهم الوحيد خارج المثلث  
عبدالوهاب بخيل محب ، والحال من  
بعضه .

فى الضحى دائما يعود ، غاطسا هو الطويل العريض فى تل من الحبال ، فوق  
حماره البغل ، الذى فرغه لعمله الشاق دون غيره من كل أمور الحياة ، إذ ما فائدة  
النهيى فى عرفه والشنفة<sup>(٢)</sup> ، والرغبة المكبوتة وقطع الرسن ؟ ماجدوى النهيق  
الجامح والنط ، وتضييع الطاقة فيما لا طائل ؟

وفى ساعة صفوقام إليه ، وبشعرة من ذيل حصان السوامة ، خصاه ، وفرغ  
من الجانب العبثى المبدد ، وخلص الحمار لعمله الشاق تماما ، بلا وهم من  
أتانه<sup>(٣)</sup> تصادفه أو رائحة أتانة ، أو أحلام يقظة بأتانة .

وكل من صادفه وهو عائد من طوافه اليومى على كل القرى الواقعة على  
البحيرة - وهو سفر طويل طويل - يستدرجه أو يشنكله<sup>(٤)</sup> بالكلام لإخراجه من  
صمته ، كل الحيل أعيتهم .

---

( ١ ) الغاب المنسوج .

( ٢ ) شم الحمار الزبلة المعترضة ، والشب بها بين الأنف والشفة إلى أعلى عليين ، فى  
نشوة .

( ٣ ) حمارة .

( ٤ ) يعرقله بقدمه ليقع .



فى الحصن يعتق حملة ، يربط حماره ، يفتح له مخلاته ، يدخل بيته ، يخرج متأبطا دفتره الضخم الذى يليق بقطعه هو . وإلى الحاج إبراهيم فى مكتبه بميدان القهوة فى ظهر حصنه يمضى .

يسلم ، وهو أول كلمة يفطر بها لسانه خارج عمله ، ويسلم دفتره ، بين يديه يجلس ، ولا يزالان حتى يُفرغ فى دفتره ، كل مخزونه من معاملات يومه مع كل هذا الخلق ، على ضفاف بحيرة المنزلة وبحر النيل غريبها .

الحاج محمد لا يسمع لا يرى لا يتكلم لا يحس لا يعرف أمه ، حتى يفرغ كل ما برأسه فى دفتره ، حبّطت كل المؤامرات ، وآخرها من الحاج إبراهيم نفسه فى مكتبه المتطوع للخدمة .

بعدها تنفتح شهوته للكلام ، يلاغى يداعب يناغش ، ويرد على كل الأصوات ، ربما ثارا من صمته ، وربما تشفيا .

الآثار المدفونة فى طول الوادى ، والتي تظهر واحدا بعد الآخر ، بعد قراءة عِدَّة ياسين طبعا ، طالما تعجبت كيف حدث لها هذا ؟ هل انخسفت بها الأرض بفعل زلزال ، أو غضب الجبار ؟ بالطبع لا ، وإلا لكانت أثرا آخر بعد عين . أم أن الحياة انقطعت عنها بفعل وباء أو سحر أو عمل ، وتأخذ الريح كامل فرصتها وعبثها بالرمل والتراب ، ثم بعد أعمار ترتطم المعاول بالزلع والتماثيل والمعابد والأهرام والكشوف .

ظل هذا التفسير يلازمنى كالظل ، إلى أن وقع نظرى على ثلاثة من شحوطى<sup>(١)</sup> ، فى قم كل منهم طرف نبوت من القصب عظيم ، كالمزمار فى زمانه ، وأوداجهم تنتفخ وتنسفت ، وعروق جباههم تبط ، ومن حناجرهم يخرج مثل صوت القاطرة الحكومية ، وهى تفرغ الدخان فجأة ، وفى نهاية الجبدة بلغة النجارة ، يفلت الصغير .

هى المباريات التى تقام كل أصيل بين الماصّة ، أيهم الأسرع ، فينجو من الدفع .

والمصاصّة ترتفع بأرض الدكّانة ، وطبقاتها اليومية تحت ضغط الأرجل ،

---

( ١ ) الشحط هو الفلق من الناس ، وأصله العود ترفع عليه الأغصان الرطب .



تتساند وتتعاشق وتلتحم ، والأرض ترتفع فى طبقات جيولوجية ، دون أن يفكر الحاج محمد مراد الصغير ابن الحصن ، الهادىء إلى حد البلاهة ، والناسى فمه مفتوحا ، حتى إن الذباب ليطمئن فيدخل الكهف المصيدة ، ولا بأس أن يبتلع بضعا كل مرة حتى يدمنها .

لم يفكر يوما فى أن يرفع تلك المصاصة ، فإذا تعذر عليه هو شخصا القفز إلى الداخل ، أتى بحجر ونصبه درجة سلم .

آثارنا ياسادة ، لم يحفظها لنا الزمن حليفنا ، الذى يحلوا لتلاميذ مدرستى أن يسموه منتفخين الخلود ، بل المصاصة ، والمصريون بسبيلهم مقشرون مصاصون مخلفون ، من أجل الرفعة فوق تلال مقالب المخلفات كالجديان .

**الصُّوَات الممطوط لسقوط**  
جاموسة فى بير ساقية ، والمتقطع  
للحريق ، وهما الكارثتان النازلتان  
دائما على أم راسى ، ولا تكونان إلا  
بليل خرمس<sup>(١)</sup> ، وفى ثانية واحدة  
اشتعل بالنبا ، بفضل التقدم المذهل  
لجهاز الناعورة الجَهورِيَّة المودعة  
فى حناجر نسائى .

العجائز على الأبواب ، يمسك الصغار بذيلهن ، رافعات الأيدي إلى أبواب السماء ، واللمبة الصاروخ على الرؤوس ، وكل نسائى يصوتن ويكيبن ويدعون من قلوبهن وبصدق ، لأنهن يكيبن مصائبهن الشخصية المثيلة التى نزلت ، أو على وشك النزول .

ينزرع باب فى كفر محب ، وكالسهم يندفع وشىء بين أسنانه يلمع على السنة الصواريخ التى يخرقها ، إنه السكين بين أسنان عم أحمد العربانى .

جاموسة الجلادى سقطت فى بير ساقية عنطوطة ، وفوق تل الساقية المشرف على أحواض الرز ، ترتفع المشاعل والكلوبات .

---

( ١ ) بلغة القرية وهى عربية أيضا بمعنى الليل الاسود المظلم .



الجاموسة عند الفلاح أغلى من ولده وذويه ، لأنها التى تجرى على حياته ومعاشه ، للفلاح فيها حصة ، ولكل من أراد أن يشغل أمواله حصص .  
الجاموسة عندى بنك .

وإلى بير الساقية نزل الجزار ، حيث الجاموسة محشورة بين الطنبوشة والترسين : الكبير النائم ، والصغير القائم ، وقبل أن تلفظ أنفاسها فيحرم أكلها ، يكون قد كبر وجزر .

ثم يقطعها لترفع من مزنقها أجزاء ، ويوزع لحمها على البيوت جميعا تضامنا ومساندة ، العدو قبل الصديق ، والعرف الصارم جرى على ألا يؤكل فى لحمها حق .

الكل يشترك ماعدا الأغنياء ، معفون بحكم أنهم لا هم من العدو ولا الصديق ، وأنهم لا يأكلون اللحم الوقيع ، كما يسمى ، إذ لا يليق بهم ، وحقيقة الأمر أنهم إذا أكلوا لا يدفعون .

لقد انتقل الجلادى فجأة من مصطبة المالك إلى قعر القفة فطيسا .

على الطريقة المحببة ، يعاد توزيع الثروة على من لا يستحق مع تقطيع الهدوم ، بعد أن تكون الثروة قد صارت أثرا بعد عين .

قال لامراته وهو على باب الخروج : فلفلى<sup>(١)</sup> الرز ، سأتيك بسمك مشوى .

ولما أن جاءها بلا سمك ، وقد أنساه إياه شيطان الكسب ، غضبت وهبت فى وجهه ، ولم تك تمضى فى موشح النكد ، إلا وقطة تقفز من السطح المجاور الخالى من السكن والسكان ، إلى شباكهم المفتوح ، وهى تحمل ذكر بيط جاهزا .

ما كان من الاثنين فى نفس واحد ، إلا أن بسا القطة بصرامة ، فهربت بجلدها تاركة ذكر البيط الجاهز أمانة .

قال لها : ولاتزعلى يا ستى ، أهى إجت جت من السما .

---

( ١ ) انضجية حتى لايتعجن لو تتلرزق حباته وتلتصق ، بل يبدو متفردا كحبات الفلفل .



قالت : وهى السما بتشتى<sup>(٢)</sup> بط محمر ؟  
قال : أصل ربنا عالم بالحال ، وما يحبس النكد ، لا وِدكر جاهز ومعتبر .  
وأسرعا ياكلان وينبسطان ، قبل أن يبين له صاحب .  
قالت وهى تجمع الأشلاء : مسكينة صاحبتة .  
قال : لا مسكينة قطته .

ثم خرج إلى قهوة يوسف يحبس بالشاى ، وشرع يحكى لجلسائه عن كرم الله عليهم اليوم .

وانتفض جاره الجنب ، وأمسك بخناقه ، وأراه النجوم بالنهار الظهر .  
ثم طالبه بالعوض ، إلا أن هذا رفض رفضا ، بحجة أنه غير مسئول عن غفلة الغافلين ، وأنها للمحظوظين وليست للحسيية ، أم تريد أن تغير من سنة الله فى كونه ؟ !

كان الورثة فى انتظار أنصبتهم من بيع أرض الت إليهم ، وقد تصدى للبيع والإنجاز ابن الشيخ ، والشيخ - وليس ابنه - فوق كل الشبهات منذ آدم حتى القيامة ، وكان الابن قد طلق امرأته ، إلا أنها لاتزال معه لم تغادر شقة الزوجية ، ربما كما يقولون - مع الاحتفاظ بحقى المشروع فى الاستغفار - بمعاشرة بلا تعشير .

كان كل واحد من الورثة غارقا فى غزل فاضح مع نصيبه المرتقب ، حين خرج عليهم ابن نوح ، ليقول فى شمحطية يحسد عليها :  
- كان المفروض يا سادة ، أن تكون رزم نقدكم معى الآن ، إلا أن مطلقتي للأسف الشديد ، خطفتها نكاية وأشعلت فيها النار .

كان أحد المتفاصحين - وما أكثرهم عندى - يدلى بأقواله أمام المحكمة ، فجره لسانه إلى القول .  
- العامل الزراعى « البيه ملح » ، يا سعادة البيه ، هو الذى دس الريش فى



مخللة الحمار فأماتها ، لأنها ترفسه كلما أراد شيئاً منها ، فعل ذلك انتقاماً منها ، ونيا .. فى .

وانقطع الكلام ، وانحبس صوت المحكمة ، وران عليها الصمت الثقيل .

إلا أن المحامى اللودعى ، انبرى يقول :

- موكلى يقصد « نكاية فيه » يا سيادة القاضى .

وانفجرت المحكمة بالضحك ، وقد سرى عنها .

إمال ؟ لدى أنا الأخرى الصناعة  
الثقيلة ، التى احتكرها ، ولا تحسبن  
العالم الحديد وحده هو الذى  
يعرف الاحتكار ، هى صناعة  
سمسرة الحمير ، ولأمانع من حصان  
حساوى فى السكة ، والمحتكر  
الأوحد قبيلة الحنانوة .

أول ما نبدى القول فى هذه الصناعة ، أن الحمار إذا أتى واهنا مهزولا نائماً على نفسه ، دس له الحناوى منهم فى دُبُرهِ خفية على باب السوق ، قرنا من الشطة ، فيدخل السوق وكأنما يمشى على لهب ، ورأسه وأذناه إلى عنان السماء .

احتاج الشيخ حسن الغزاوى يوما إلى قرشين ، فعرض حماره البائع للبيع ، فصل بعشرين جنيهاً ، حتى وصل إلى ثلاثة وعشرين ، رفض الشيخ البيع مالم تكتمل الخمسة الخامسة .

فلما زُنَّت عليه ، توكل على الله ساحبا إياه إلى سوق الحمير بالمدينة ، وفى الأصيل على قدميه عاد ، وتلقفه الحاج إبراهيم فى مكتبه بميدان القهوة ، الذى يفتح للشاردة والواردة . سألته :

- وركبت رجلك بكام يا شيخ حسن ؟

- ١٨ جنيه بس .

- وليه البهدلة دى كلها ؟

- أعمل إيه ياسى إبراهيم ، أصلهم رضرضونى ، رضرضونى ياسى إبراهيم

رضرضونى .

والرضرضة ياسادة هى سر هذه الصناعة الثقيلة البائع ، يُلْقَاهَا البائع



والمشتري على السواء ، وعدة الشغل فيها الخيزرانة الطويلة الرفيعة التي لا يتكلم الحناوى إلا بها ، لو نشلت منه خرس .

يقع الزبون ، بائعا أو مشتريا ، كما تقع اليمامة فى الفخ ، حول مدار حمار راقص على لهب ، على ظهر الزبون - والابتداء عادة بالظهر - حتى يقبل - يُلسوع قائلا :

- ما تدورش ورايا ، أنا حاغشك ؟ !

ويُردفه بالثانية على صدره ، حتى تلتقى بداخله اللسوعتان فيتوقف ويثبت .

وتأتى مرحلة المناقب ، وتختص باللسوعات المتلاحقة ، تنهال على الأطراف الأربعة ، فلا يرى الزبون فى الحمار إلا ما يتغنى به الحناوى .

- طلاق تلاته يسابق قطر الحكومة .

وبلسوعة عظمى على الفخذ البعيدة .

- طلاق تلاته أشرب عليه فنجان القهوة ما ينكب .

وبواحدة على الظهر .

- دى شعرته قطيفة .

وبواحدة أحمى على المعصم .

- على الحرام دا أصله على تلاتين .

وينظر الزبون الخبير ، ويقول بعجلة :

- دى بطنه كبيرة وياكل كثير .

وبلسوعة موصاة ، وراها وابل :

- أنت بتدور ورايا ؟

وواحدة أشد :

- ماتدورش ورايا .

وواحدة على المعصم الآخر :

- على الطلاق دا على ستة وعشرين .

ولسوعات لطيفة مداعبة ومتلاحقة :

- طلاق تلاتة دى فلوسك حلال ، السوق النهارده واقف .

وبيده يشده من يده يريد أن يملخها .

- يبارك لك .

ويظل يرددها ثلاث وسُباع وتساع ، زعقا وملخا ، حتى يأتيه جواب الزبون

المحاصر .

- يبارك .



فى كل قرية بخیلٌ مَتَحَفٌ ، یجمع ویضم ویحوّش ، یملك الخرابات ولا یربى إلا المعیز وحدها ، لأنها تلوّش طعامها من الشوارع ، وتنهبه من أعماق البیوت ، فلا تكلفه حیاتها سحتوتا<sup>(١)</sup> واحدا .

وبخیلنا عبدالوهاب ، الذی یعیش على المجفف والمخلل ، استغل أصحابه من الصبّیة - والبخیل لا یصادق إلا من الصبّیة - فى حفر ما یشبه البركة فى ركن جنینة الخرابة ، وفى ملئها بالماء ، وإمدادها به یومیا لیحتفظ بمنسوبه ، وهو عمل أحلى على قلوبهم من العسل .

وإلى البركة جلب عبدالوهاب القرامیط الحیة ، یشترى الصغار منها بالكومة وبالمقایضة ، منذ أن كان قرشه یعمى إن رأى النور كما یقولون عنه ، یربّیها له الزمن فى بركته ، والزمن وطولة البال للبخیل المّعین الصدوق .

ویوم أن دخلنى الماء النقى من دمیاط ، عمد إلى حنفیة فى الحوش ، أقام علیها حوضا مسدودا لا منفذ له ، وفتح الحنفیة فتحة یفلت منها خیط من الماء دائم دائب ، إلا أن العداد لا یحس به ، وكم أجرى من التجارب بین الحنفیة والحوض والعداد ، ومن الحوض تعود أن یغرف لحیة یومه وحیة قرامیطة .

ولعبدالوهاب جدی شهیرہ قوی عفى ، یشارك البلد کلها طعامها ، ویذّبّق<sup>(١)</sup> بالأطفال لحظة خروجهم من بیوتهم ، لیخطف اللقمة من أفواههم وأیدیهم ، وهو العلیم بمخزن الحبوب فى كل بیت ، یقتحمه بسطو مسلح مباشر ، لا یُثنّیه ضرب أو نطح أو أذیة ، حتى ینال وطره كاملا .

ولعبدالوهاب أيضا ولد ، أبيض البشّرة كعبدالوهاب ، طویل عریض قوی عفى ، لا یعلم أحد أهو شرعى أم غیره ، باعتبار أن البخیل لا یقدم على زواج ، إذ لا تهون علیه تكالیفه الدائمة والحتمیة ، وهو الهارب بالقوة أو بالفعل من الحتمیات ، وباعتبار أن البخیل الأصل بارد لاتهنّز فیه شعيرة من أقاویل الناس ، و بین أقاویلهم والأفاعیل فراسخ وفراسخ .

زامل علّی ابنه جدیہ طویلا ، حتى تعلم منه أصول الصعلكة ، یركبه هو الثقیل ، ویجرى به فى مشاویره ، حتى أطلق علیه أترابه « على الجدیانى » .

---

( ١ ) السحتوت هو البارة أو الفضة والمليم عليه رحمة الله ، وبجلالة قدره ، كن ینك إلى أربعة من هذه السحتیت .

( ١ ) هی نفسها « یذّبّق » العامیة .



ومن طول العشرة تلقى على يديه الضراط باللسان ، حتى إنك لاتفرق بين ضراط وضراط إلا بالرائحة ، وخرج منه إلى التجشؤ بأنواع أكلاته ، وأعتاها الفجل .

وعلى الجديانى لا يحلوه أن يطبق هذه الموهبة المكتسبة ، إلا بين كوكبة من لداته فى ليل رأس البر ، وفى لجة الاستعراض العظيم لربات الثراء والجمال . حين يلح جميلة الجميلات ، يحييها بجشأة فجل أو ضرطة ، حسب المقام .

والثلاثة عبدالوهاب والجدى وعلى الجديانى ، من طول العشرة ، تداخلت منهم السحن ، وتقاربت الملامح ، حتى تناقل المحبيون أن الجدى حصيلة نطة من عبدالوهاب .

والأسطى محمد الرجل الرزين الصموت ، المزين الوحيد الصموت ، لسانا ومقصا ، لاتخرج منهما الكلمة والقصة إلا موزونة وبالكماشة ، وضربة مقصه فى الشعر لا تضاهى ، مترفع وقليل لا يقص عندى إلا لثلاثة أو أربعة ، والباقون يتولاهم أخوه الأصغر الأسطى أحمد ، وعماد قصه لخاصة الخاصة بدمياط .

الأسطى محمد من كثرة ما رأى ويرى طول الصيف من الجمال المتجمع فى رأس البر ، حيث ينتذب يوما بعينه فى الأسبوع ، فى صالون الشال بشارع النيل حيث المعمعان الليلي ، يقص فيه لخاصة خاصته ..

الأسطى محمد هذا من قبح امراته كما يراها أخيرا ، ضج وبرم . ولكنه متعال رزين وكاظم .

وكلما أراد أن يعاشرها ، نزل فى الأصل رأس البر ، وتجول بين فائقاتها فى شارع النيل ، إلى اللسان ، إلى أن ينتقى له واحدة أثيرة من بين المئات ، تفتنه وتخبله ، يتعقبها وتلازمها عينه من بعيد وقريب ، يتمعن ويخزن ويحوش ، حتى إذا ما أترعت منها نخاشيشه بعد انقضاخ المولد المنصوب ، أسرع إلى بيته فى قلب الليل ، إلى وجه امراته يطرح عليه ، فوطه ، ليباشرها وهو يتمثل نموذجة الذى اصطفاه .

## ياسين الفران

وياسين الفران ابن ياسين الفران ، الذى خصص فرنه للسبك وحده ، واتخذة على أول حدود المدينة ، وعلى مرأى منى ، وبين سماكين عن يمين وشمال ، والثلاثة من أبنائى ، يتوانسون حتى لا يضيعوا منى فى المدينة الكبيرة .



ياسين الهادىء الذى لاتسمع له حسا أو ترى ظلا ، اهتدى إلى أسلوب مثله  
حريرى وناعم فى التحايل على المعاش ، دون أن يضار أحد ، أسلوب وردى  
لايتعدى طبة الميزان ، إن عرض على عداد المخالفات .

ياسين الفران يشرق وجهه ، إن أتاه زبون الاستفتاح بِشَرٍّ ، وهو البلطى أو  
الشبار الصغير جدا ، أو أى سمك صغير جدا ، ويربذ وجهه مع السمك الكبير فى  
الاستفتاح ، ويظل طول يومه مكفها لا يفكها .

السمك الصغير جدا لا يعد ولايحصى ، إذا فصلت منه ثلاث سمكات - وهو  
عدده المفضل - شاور الميزان نفسه بين أن يتأرجح أو لا يأبه .

هذه الثلاث المفصولة التى لا وزن لها ، هى له حلال زلال ، منذ أن كانت  
لاتحوق أو تلوق ؟

سنرى كيف لا يستعجل عليها ، بل يملأ لها النهار كله حتى تنمو بخطوات  
جثيئة وهى القادرة على فعلها بجدارة .

وكلما أتاه سمك من النوع الذى أوقعه بخته فيه ، استبدل بسمكاته الثلاث ،  
ثلاثا أكبر سنّة .

ويظل سمكه طول النهار لا شاغل له إلا النمو ، حتى يصير فى اصفرار  
الشمس ثلاثا من الشبار أو الجران أو الدنيس ملء العين والهوى والمراد .

أما إن باضت له فى القفص ، أتاه سمك الاستفتاح خليطا ، ونصيبه من  
أجناس ثلاثة ، تظل تنمو وتتربى ، على الغالى حتى آخر زبون .

يلقى بها إلى صاج الفرن ، لتشوى على ذوب نار النهار كله ، هادئة أصيلة ،  
حتى إذا ما استوت على الجودى ، أخرجها إلى الملح والتوابل ، وكمرها فى  
لفافة ، حتى تقض وهى تتوسط طبليّة العشاء الثلاثية .. هو وامراته وابنه ياسين  
ياسين ياسين الفران .

على الهربى المائى الذى يحدنى من البحرى ، ويلف القرية كلها كالحزام ،  
حتى يعود إلى القرعة من حيث أتى ، يقع بيتا ندى وشتا ، وبينهما شارع ، ولكل  
بيت منهما جنينته التى يحفها النخل ، وتتوسطها الجوافة ، ثم التوتة والنبقة على  
جانبي الشادوف تظللان الساقى ، والأشجار كلها خضرة وظل وجمال وثمر ، ثم



شجرة الفتنة التى على حافة جريف الهري ، تمسكه فلا ينهار ، وفى اقصى  
البحرى ، حتى إذا هب نسيم ، حرك زهور الفتنة الصفراء التى فى حجم البلية  
وكالقطيفة ، ونشر شذاها فى البيت والشارع .

وزوجة حسناء كالبقرة ، وحاضرة وأروب واسمها ضحى ، سكنت فوق ندى ،  
فى دورهم العلوى بعد زواج بناتهم .

لم يزرع ندى لبيته على عادة من يملك جنينة ، لبلاية تكسو جدران البيت  
جمالا ، وترطب صيفا ، وتحفظ من العين ومن التآكل والبلى ، تماما كما يغلفون  
الدراجة بالمشمع ، والكرسى المذهب ، ووجه المرأة الفاتن ، بل زرع لأول مرة  
فى الشط كله فضية .

ولأن بيوتى تفتح طاقة من مجاريها فى حدائقهم ، فالنبات عندى كالحسناء فى  
المنبت السوء ، يصح ويزدهر ، وما أسرع وأنشط ما صنعت الفضية إلى ضحى  
الجميلة ، وبالطبع على حساب تحت ، حيث تذوى الأوراق والأغصان ، ولا تبقى  
إلا الساق الأصل الغليظة المقشفة .

وحزن آل ندى كل الحزن ، يزرعون الفضية ويتعهدونها ويربون لحم اكتافها ،  
لتكون فى معية الست ضحى الغريبة ؟ !

لا بد أن تدفع مقابلا ، وإلا حششناها .

ولكن الجار شتا ، صعدت إلى بيته ست الحسن ، وكسته حتى لم تعد تطل منه  
طوبه ، فى منظر فاتن ، أخضر كاس ، ترصعه الزهور القمعية البيضاء .

ألبته لا يستطيع حسن ندى فراش المياتم والنساج ، أن يجتث فضيته  
الوحيدة فى الجنان ، وإلا كان قد رفع الأيدى بالتسليم السهل العبيط ، فى  
المعركة الاجتماعية المحتدمة بينهما دائما أبدا فى ود .. ندى وشتا .

وكلم ندى ضحى فى أن تدفع أم قرشين شهريا إيجارا لهذه الفضية المكلفة  
التي تتمتع بها دونهم .

قالت له الست ضحى التى تعلم بواطن الأمور ، وتملا يديها منها تماما :  
قالت وهى تهز كتفها :  
ما تلزمناش ، عايزينها خدوها ، وعلى اكتافكم شيلوها ، اتلفعو بها .

وخرس آل ندى .



وأخونا محمد شتا ، جار ندى ، البياح فى دكان آل هندام ، الضخم بالمدينة ،  
أنته سيدة معها قفة ، أقبلت عليه بابتسامة عريضة ، وسلام غليظ وسؤال عن  
امراته بالاسم ، وابنه عوض وبقية الأبناء والأحوال بالتفاصيل والوقائع .

ثم طلبت طلباتها من الرز والعدس والسمن والزيت ، والعسل والطحينة  
والصابون والزهرة ، لم تغفل شيئا حتى امتلأت القفة ، وكان الحساب سبعين  
قرشا .

ثم قالت : المحافضة ياسى محمد بعيد عتك ، قشطتنى ، قيد الحساب ، وبكره  
حافوت أدفع .

وأعانها فى حمل قفتها الثقيلة فوق رأسها ، وأقلعت مضمخة بأزكى السلام  
والتحايا .

وفى آخر الليل ، قبيل أن يشطب ، شد الحاج عبده هندام دفتر اليومية ،  
وشرع يرحل حساب اليوم ، فوجد مكتوبا : واحدة شايلة قفة . وأمامها حسبة ٧٠  
قرشا .

والسبعون قرشا يومها ، كانت تشتري محلا .

وأخونا محمد شتا هذا ، هو نفسه الذى قالت عنه « الخوف »<sup>(١)</sup> إنه بعد  
الوصول إلى بيته فى آخر الليل ، يجلس على عتبة بابه ، طلبا لنسمة شاردة ،  
وتأتيه امراته بالطعام من الرز والسمن والطبع .

يقشر السمكة ، ويتناول ملعقة من الرز ، وفى أعقابها فصا ، وبينما هو  
يمضغ ، إذ يغلبه سلطان النوم من طول وقوفه وحركته الدائرية فى محل هندام  
الوكالة .

وتقوم القطط عنه بالمهمة مسحاً ولحسا ، ويصحو فيجده قد أجهز على  
طعامه ، يغسل يديه من الزفارة ، ويربت على كرشه حامدا الله على الشبع ،  
شاكرا فضله .

---

( ١ ) رواية للمؤلف من محب نفسها .



الطحين خدمة أسبوعية في كل بيت ، إن لم يجد ما يطحن ، نصب الرحى في صحن الدار ، وطحن نفسه مع بقايا حبات الذرة والفل والحلبة وكل ما تصل إليه اليد ، إسعافا وتصبيرة إلى ميسرة .

والحمار وسيلة نقل الحبوب إلى مكنة الطحين ، والصغار وسيلة الحمار إلى المكنة ، أما الحساب فيتولاه جمعة عامل المكنة ، بعد أن يوقفها ، ويشنكل<sup>(١)</sup> بابها .

يأتى جمعة برموشه وفوديه مخضبة بالبياض ، والخضاب الأبيض أمل كل الصبية وحلمهم ، لأنه الكبر والعمل والبعد عن تحكم الكبار ، وما الصغار إلا فراشات تتغطى أجنحتها بالدقيق الملون ، شديدة القسوة ، لأنها لاتدرى كنها للآلم .

والكبار لا يسمحون للصغار بصحبة الحمار ، إلا بعد أن يسمّعوا آية الكرسي ، لأن القنطرة التى يعبرها الحمار الثقيل بحمله ، لم تكن إلا اسما لشيء مُسِنَّ متهاك ، وآية الكرسي رخصة القيادة التى تجنب الحمار أن تنغرز قدمه فى ثغرة من القنطرة الموميا .

وحيث يسهرون إلى إصلاحها ، بأن يضيفوا بضعة مقاطف من الردم تُدحى فوق سطحها ، فتجعلها تغط فى التراب الساخن صيفا ، وفى الطين الزلق شتاء ، وبذل أن يكحلوها يعمونها .

ماكان ينغص الصغار ، ويعكر عليهم أحلامهم فى الركوب والمسئولية ، والعودة مكليين بالتاج الأبيض ، إلا هذه الترة التى تعترض . لم لم يبن هلالى مكنته إلا فى البر الآخر ، بل لم لاتبنى الحكومة قنطرة ؟

ثم .. لم يهدىء العطشجى من سرعة قطار الدلتا الفرنساوى البطيء أصلا ، ليلقى على ملابس الصبية المستحمين ، المخبأة فى الغاب الكرومى على ضفة الترة ، وتحت قوائم القنطرة ، الجمر المتقد ؟ إأنهم يضعون المسامير على الشريط ليططها قطاره ، فتكون لهم سكاكينهم ؟ مايضيره ؟ ألم يكن صبيا ؟ ألم يجرب أن يكون له ولد ؟ !

كان التجهم هو وجه كل شيء ، والحرمة تتلبس كل شيء ، فى كل خطوة محرمات ، المكنة مثلا محرم على الصغار الذهاب إليها إلا للطحن ، وليست

---

( ١ ) أى يقلل بابها بالشنكل الكبير . وتسميه محب الغراب .



النزهة ، والتاج الأبيض الذى يكلل ، هو نفسه الذى يفضح ، لكأن الكبار لا يكونون كبارا إلا بالمحرمات والمحظورات .

وحيثما لا يكون طحين ، يجلس الصغار حول القنطرة آخر حدود المباحات ، ليفتحوا مراجل غيظهم من كل الممنوعات ، بفرض ضريبة على كل من يعبر ، أن ينشدوا له فى جوقة واحدة ، مايقوله الراكب للدابة ، وهى مقدمة على أرض مزلفة : « اوع زلق » ، فيردون ممطوطة : « أوعى » .

وكما هبط المستوى فى مدارج المعيشة ، أرخى الآباء الحبال للصغار ، وزادت الإباحات والمسموحات ، حتى تنعدم المحظورات فى اللامستوى ، ويابختهم ، ويا ستون طظا فى المستوى ، كما يقولون ، إلى أن يغادروه ، فالطظ يومئذ فى الحرية .

ففجأة ، سمع الصغار ، الكبار يرددون : « الانتخابات » ، وقد زایلهم جمودهم .

وفى صبيحة تحولت القنطرة إلى فرجة ، والصغار لم يشدهم أو يجذب انتباههم الصغير ، الانفراجات على وجوه الكبار ، ولاتلك الوجوه البيضاء ، الملظظة الوافدة من المدينة ، بأيديهم الممتدة بالسلام والمصافحة ، والسنتهم المفرقة بالكلام المتدافع ، ولا الليل الذى صار نورا ومكلمة ومقابلات ، ولا الدنيا التى أضحت عرسا وبشاشات ، ولا حتى الأيدى الحديدية التى لانت ، فلم تعد تقبض على الصغار ، وتدخلهم الأقفاص كالدجاج مع أذان المغرب .

بل ما يحدث حول القنطرة ، راوا فجأة كومتين من زلط ورمل عن يمينها وشمالها .

أخيرا سيبنون القنطرة ، هيه ، وزاط الصغار وزقططوا .

الانتخابات كمباراة الكرة الشراب ، من يفز يبن ، وهو وعد من كبراء البندر .

وخطر على بال الصبية ، أن يقسموا بعضهم إلى فريقين ، كل فريق إلى كومة زلط يعد حباتها ، والفائز ولا ريب صاحب الزلط الأعظم والثقة ، وهو من يبنى القنطرة .

وتم التصويت ، وياتت محب كساحة الفرع المنفض .

ومن النجمة تسابق الصبية إلى القنطرة فى انتظار البنائين والفعلة . وجدوا المكان يصفر ، انشقت الأرض وابتلعت الرمل والزلط والأحلام . والذى استفربوا



له أشد استغراب ، أن الكبار لم تهتز فيهم شعرة ، كأنما لم يروا رملا أو زلطا ،  
فقط عادت كل تقطبية إلى مكانها بالضبط من تضاريس الوجه .

قالوا لأنفسهم ، لم لانكون كبارا ، نرى ونفهم ولا نتكلم ، ولنا تكشירתنا التي  
ستكون أعظم من هذه ؟ ولم يكونوا يعلمون أن واحدا فقط له حق السحب هو  
الغالب ، لأنه كولد الكوتشينة يقش ، وأن الرمل والزلط ماهى إلا مراهنه بينهما  
على اللعبة الانتخابية ، لا شأن للبلد بها إلا زعزعة أحلامها .

القنطرة هى البرسيم الذى تلوح به للخرفان .

وما أسرع ما جاءت الانتخابات التالية بعد بضعة أشهر ، ماذا جرى لزعزعة  
القصب فى « مصر » ؟

لأول مرة ظهرت أسياخ الحديد إلى جوار الرمل والزلط . قيمة المراهنة زادت ،  
والمفاجأة الجديدة أن الأكوام زادت كوما .

أما مرشح الوفد فاحتل يسار القنطرة ، وأما مرشح الأحرار الدستوريين فاحتل  
اليمين ، وأما المستقل فاحتل الضفة الأخرى البعيدة ، والفائز بالطبع يقش ، لأن  
اللعبة بينهم هم بعيدا عن الناس الورق .

هل لى أن اخص احدا من ابنائى  
بفائض من حب او كره عن  
الآخرين ؟ إن كان فهى هذه التى  
تعيش على تاجج أحقاد هذا  
المجتمع الصغير ، وتشعلها  
بلسانها حديدة الفرن ، إذ تتعامل  
باقتدار مع بيت النار ، حتى إذا  
ما نزلت نازلة ، طارت الأحقاد ،  
وتسلندوا على دفعها ، وفى مقدمتهم  
ضابط إيقاعهم رداحتنا ، لأنها تعرف  
اللعبة جيدا ، فلا تخلط أدوارها .  
هى أفيونتى .

اللحظة التى تخز فيها الشمس النحلة بإبرتها حبة الندى ، يطرق الأذان  
النائمة أول صوت آدمى يرن بعد أذان الفجر ، ويحدث فى الأثير لغطا .

تبدأ يومها ، لا بصباح خير أو قل ، بل بشوط حام من تمرينها الصباحى فى الساحة أمام بيتها ، على جارتها القزعة « على البندقة » كما تسميه ، المسكين الذى لم يرتكب يوما فى حق ظله ظل إثم .

ولكن مافى وسعها أن تفعل ، وشباكها يطل على بابها فى الساحة الفاصلة ، التى ينصب فيها زوجها عم السعيد شلاطة ، حضانة ومعهدا وشفخانة للحمير ؟ ثم .. وهو أصلا المنحول القصير الممصوص كتمر ؟

وحبال صوتها تخشى عليها أن تصدا أو ترتخى ، وهى الحريصة على رأسمالها الثمين المودع فى صوتها ، وقاموس ردها وتضاريس أداها ، وغرفة التحميص المظلمة لصورها الفنية ؟

من أول دقة تحرص على إيقاظ الشارع والحارات ، ليكونوا شهودا ، والفرجة ركن اللعبة الركين . إذ ما قيمة الردح بلا تشهير ؟ ! وعلى أبودورين كما أخرجه ردها ، هو الميس والبو<sup>(١)</sup> المنصوب أمامها كل صباح ، لاتحل عنه أو تعتقه إلا إذا جاءها نداء مع وش الفجر ، ويحدث عادة فى التار البايث ، أو الطارىء المفاجىء الجسيم ، وحينئذ لاتقطع تمرينها ، بل توصله إلى نهاية مفرقة متقنة إن تعذرت الطبيعية .

هذا التمرين الصباحى الدائب الدائم ، هو نفسه النداء الحى على بضاعتها التى لاتبور ، لأنها جاءت عن ضرورة قصوى ملحة ، وعلى الوجيعة .

وعلى البندقة - الذى صار اسم شهرته - ذلك الجمل الصابر ، لايرد أبدا ، لم يفتح شباكه المظل عليها قط ، بل استيقظ الناس يوما ، ليروا الشباك مسدودا بالطوب الأحمر ، والقرية تتقاتل حتى المحاكم والدم ، على فتح شباك من أجل ضم ملكية أو إثبات ، البندقة اشترى نفسه ، حتى لا يسمع إلا من قفاه .

إذا أتاها النداء ، دخلت بيتها وعادت بملاءة الردح الطويلة أم ذيل ، تجرجرها بيمنائها ، كالإعصار نقش وتثير ما على الأرض ، وتتعمد أن تطيل الطريق من أجل الحشد والتهيج ، فلا تصل إلى المسرح إلا فى غاغة .

يبدأ العرض بالقرعة ، عدة الشغل الرئيسية لأنها الرمز ، تديرها بين أصابعها فى دربة حتى تور كالنحلة ، وتختفى ملامحها وتتجرد إلى شكل القلة فوق دولا

---

( ١ ) جلد الابن يحشى للام من الإبل ، لتدر عليه اللبن .



الفخرانى ، ثم تلقى بها لتتنطط ثم تتدحرج ، ولسانها معها يفرقع بالأهاجى ،  
وللقرعة الحبيبة سحرها .

والبيوت كلها مندلعة بردح النساء ، وكلهن الهواة دون الرجال ، فالردح فن  
نسوى خالص ، بخلاف الهجاء العربى الرجالى ، والموسرات يستأجرن قرعة  
حفيظة ، والموسرات يردحن لأنفسهن ، بأن يبدأن على أبوابهن شرشوحات<sup>(٢)</sup>  
يشاكسن طوب الأرض ، إذ ربما ينجم من بينهن حفيظة جديدة .

بهذا مضيت أنا محب ، أهدهد أوجاعى .  
X X X

قالت لها ست البيت ، الذى يطل من عليائه على بيتها ، ويفصل بينهما ساحة  
الحمير وتمرينات الردح الفجرية ، حيث تخدم فى الضحى وتهنكر ، قالت لها  
الست<sup>(٣)</sup> فاطمة فيما بين التأنيب والعتاب :

- يا خُلْتُ<sup>(٤)</sup> حفيظة انتى ليه ما غسليتيش القصرية كويس ؟  
- إيه ، طب هاتى .

ونتشتها من يدها ، إلى الحنفية تصب فيها الماء ، واندارت إليها تشرب منها ،  
ثم أعادتها إليها من سكات .  
X X X

ويوم تنقية الغلة<sup>(٥)</sup> ، هى للغربال ترقصه ذات اليمين ، وذات الشمال ، تدرى  
وتنطق فى يسر وسلاسة ، ويوم المُنخل بعد طحن الغلة والذرة ..

يومان تجتمع فيهما المريدات ، وتتزود منهما حفيظة بشوارد الأخبار  
والأسرار ، الصحيحة والمدسوسة عن عمد ، وكله نافع ولازم تعمل من حبته قبة ،  
منذ كانت رداحة الموقف مع أوضد يستويان ، ومنذ كان له استدعاء لدُنَى<sup>(٦)</sup> فى  
نظم معلقات ردها .

ويوم الخبيز تعجن ، ثم تخطف رجلها فى شأن من شؤونها المتشعبة ، لتعود

---

( ٢ ) الشرشوحة هى ذات اللسان الفلت المقلد .

( ٣ ) إجاز المجمع اللغوى « ست » لصحى ، وتغاضى عن « سى » بمعنى سيد .

( ٤ ) أى خالة ، وتنادى بها محب الست المسنة ، أما اخت الام ، فنقول عنها « خلتى » .

( ٥ ) القمح بلفه محب .

( ٦ ) ربانى ملهم .

لحظة أن يكون العجين قد خمِر ، لتحل رأس مشهد المقرّصة والمبطلات ، بالجلوس إلى الفرن ، تؤلب أهاجى ناره فى عينه الحمئة وتؤجج ، وهى تلقى إليه بالرغفان ، لتخرج كأدوار ردها ملتهبة منتقخة مشربة بالحمرة .

وفى بيت النار من فرنها الداخلى ، ينحدر كل لت النساء وعجنهن ولوكهن السير كلها ، تلقمه وقودا يندلع ساعة الصفر من ردها الجهنمى ، المؤلب والمنفس معا لكل الغيظ والمرارات والأحقاد والعداوات ، حبال من مسد<sup>(٧)</sup> تربط هذه المآتات بالحياة .

هى حفيظة الفسكرية<sup>(٨)</sup> اللهلوبة ، رداحة محب ، وزوج قشار محب وسماكها والقائم بأعمال حميرها .

بالفعل وأنا معها ، أضربها طبنجة .

قالت لابنها وهى خارجة .

- خلى بالك يا مسعد من أخوك السعيد اللى فى اللفة ، خلى بالك عليه من الكلاب والقطط ، حاخطف رجلى لحد دكانة هندام وجايه طوالى ، خلى بالك ياله .

ووقف مسعد على الباب ، عين فى الجنة وعين فى النار ، بين أن يخرج إلى أصحابه ، أو يبقى مع أخيه .

ولجأ إلى الحل الوسط الشهير عندى ، الذى يرضى الأطراف كلها دون أن يزعل أحدا ، بأن استدعى الأولاد معه يلعبون ، دون أن يبعد عن أخيه أتوا وفى يد كل منهم حفنة من تراب كانوا بها يتقاذفون .

تخطى أولهم عتبة البيت ، وتلاه ثان وثالث ، وأيديهم بما فيها تأكله بالضرورة ، اقترب أولهم من أخيه ، مد يده اليسرى الفارغة يزغزغه فى إبط ومشط قدمه ، وأتى أشقاها ، مد يده الملاى بالتراب ، داعب بظهرها ذقا وخده ، واستغرقت المداعبة ، فتراخت يده ، وتسلى التراب إلى فمه المفتوح مختلطا باللعب ، فاسود . أغواه السواد بالمزيد من التراب والسواد .

---

( ٧ ) من ليف النخل .



وجاء الثالث ففتته المنظر والفكرة الجديدة اللنج ، أفرغ ترابه فى الفم مرة واحدة .

وجاء الرابع فعجنه باللعب ، وملطه سادا به الفم .  
وكان صُوات ، وقامت القيامة ، ووقفت البلد على رجل ، وجاءت الحكومة بعسكرها وورقها .  
وقيدت سابقة ترويه الشطوط كلها ، وتتفكه بنا .

النخلة عمود حياتنا ، إذ هى فضلا عن منافعها المعهودة ، مقياسنا للزمن ، وحساباتنا بظلها لاتخيب أبدا ، بالرغم من اختلاف طول الظل واتجاهه مع خطوات الفصول التى لاتتوقف ، ونمو ظلها نفسه مع خُطى الأيام .

أما القمر فمقياسنا للشهور لأنه صانعها ، وأهم شهورنا بالطبع رمضان ، ومقياسنا له لا يخيب أبدا ، هو عم أحمد هيبة شخصا .

على باب بطيخه الذى على وش الدنيا ، يقف ، والسيجارة التى لفها فأحسن برمها ، وعلبة الكبريت بالحكاكة فى وضع الحك . كل هذا فى يد ، وعود الكبريت المتأهب فى اليد الأخرى .

إذن نحن فى رمضان ، وفى انتظار المدفع .  
وليس شرطا أن يكون المدفع قد أذف ، لأنه يفعلها طول النهار ، كلما زن عليه الكيف .

كل منهما حاج ومحمد ، يطفشان المصلين من الجوار فى صلاة التراويح ، التى يختم فيها الإمام المتأنى جدا الشيخ عبدالحميد ، القرآن كله فى رمضان ، كل ليلة جزءا .

الحاج محمد مراد الصغير .. ساكن الحصن وصاحب دكانة القصب ، أسرع الخلق طرا إلى نوم فى عمل فى طعام فى جماع فى صلاة ، حتى إنه لينام فى النوم ذاته .

ما سجد قط خلف الإمام ، إلا وتخلف نائما لا يقوم ، ومجاوراه يزغدانه بينهما

زغدا .. أما في قرآن القيام الطويل ، فإنه ينام جانحا دائما إلى شمال ، ومن شماله يهرب المصلون ، كي لا يتحولوا إلى جدار أو دعامة . مرة واحدة تركوه لشماله الخاوي ، فكبس عليه طائف النوم ، فخر من طوله وقد شج رأسه .

وكنوه أبا النوم .

والحاج محمد الشناوي .. ضبع الفجل في الإفطار من رمضان ، وطول صلاة التراويح يتجشأ الغازات ، كلما تألب مستنقع الفجل بالفقاعات ، ويا سلام لو هبت ريح ، ووزعت النفحات اللدنية على الأنوف الساجدة .

والحاج يبرر فعلته النكراء ، بأن التجشؤ يريح معدته المملأ على الآخر ، ويمنحها متنفسا وحركة ، والفجل هو الملاذ العظيم .

إذن مازنب المصلين يا حاج ، وشذا فجلك يطارد خشوعهم ؟ !

- يا خي ، حد طایل ؟ ! ثواب ونازل عليهم من السما !

وكنوه أبا الأرياح .

المحمدان الحاجان ييطان الصلاة ، ولا يتخلفان أبدا عن بطلان .

زُرَّ

الصبيان الذين يملأون البيوت  
والحارات ، وينفذون من بين أرجل  
الكبار ، وهم يموعون ويشقشقون  
وينقون ، ويصهلون وينهقون  
ويخورون ، هؤلاء الجن المصور ،  
والقروء القمطع ، ليست لهم حياتهم  
المؤثرة غير المعترف بها ؟

لندع المجال لراويتنا الذي كلما  
كبر ، انفرزت رجله في معجنة  
طفولته فلا يقوى على الخروج  
منها ، راويتنا المعتمد الذي يغطس  
ويقب كلما غنذنا في السير .

٢٠ نيكول هينا مرهه/٢٠١٥



وحيثما تغيب الشمس ، وتشبع غياها ، فنسلت من طبالي العشاء ، ولو تعرضنا لكل ألوان العقاب والتعذيب ، ومع كل واحد بوصته ، نقوم بجولتنا التفتيشية الليلية عن النور في الظلام ، وعن الظلام في النور .

بربطة المعلم نمضى متلاحمين بالصمت والظلام ، فالليل يجمع ويربط ، والنهار يفكك ويشتت .

الغاية التي أحسن كل صبي انتقاءها وتثقيفها ، من الغاب الكرومي المرموق وقد عاينها مع أخت لها بين عائلتيهما على ضفة التربة منذ أمد ، وشقر عليهما يطل ويجس ويعس ، إلى أن تطيبا وتخرطا وتفوحا بالنضج والكمال ، وتناديا يده أن انتزعينا ، ولكل شيء ميقات .

وفوق أعلى تعريشة في بيته أو غيطه ، وبجوار عش زنابير يريد طينه أن يجف ، تلقى الغابتان ابنتا العم ، لليل والقمر والنجوم والطل والشمس والهواء ، وطنين الزنابير ، النصف الأول من شهر قمرى ، يسويهما القمر من أوله على الهينة . ثم تقشران بعناية وتلبيان ، وماكانت منهما أكثر مياسا وطراوة ، فهي صنارة الصيد ، والأصلب بسبخ حديدى تزال جيدا من العقد في عُقلها ، لتنفث ماسورة سالكة ، تتعامل مع الهواء الطليق .

إن كانت الليلة لا يبين لها قمر ، مضينا إلى الدور بالدور ، ونحن الحريصون على أرضية من الظلام الخرمس ، تنسطر فيها فوانيس الشارع قمرا ونجوما ، فإذا بمحب ذيل يصبص للسماء .

هدف الليلة المسرجة داخل البيوت .. ومسارج محب جميعا مكانها فوق قاعدة الشباك ، ومن ثغرة والشبابيك كلها ثغر ، ننفذ خراطينا وننفخ ، فينطفئ السراج ولا يعود إليه النور ، لأن الكبار بسلامتهم ، يعتقدون أن هواء ليل الله هو الذى أطفأ ، لينخدموا نائمين .

أما الخروج الأعظم الذى لا يتخلف منا عنه أحد ، فهو خروج الخميس ليلا ، ليلة الرفسة كما يسمونها متغامزين .

وسماعات الآذان المركبة فى فوهات الغاب ، تلتقط الأحاديث المتقصعة ، والجمال المقطومة ، والأنات الممدودة المنغمة بين الأزواج .

وحيثما ينطفئ النور بفعل فاعل ، تتمدد الأصوات أكثر وتعلو وتستبين ، وتخرج الأسرار .

أما سر الأسرار الذى كنا نقف إليه محنطين ، فهو ساعة تصل الأصوات إلى

حمياها وذروتها ، وفجأة تقطع المرأة الحبل المتوتر ، لتعود به إلى الحياة بمطلب من مطالبها ، ولا تنتهى المساومة والسعر والعودة إلى سورتهما ، إلا بعد التسليم والتسلم .

كل المَحْصَنَات والحرائر يفعلن ذلك ، وتعود الرجال إن يشحوا طول الأسبوع ، ليدفعوا « الخميس » لكل من يعمل لهم .

لم يكن ينجو من عسنا هذا إلا البيوتات ، التى لاتودع أسرارها وكنوزها إلا فى الدور العلوى ، ولئن لم يكن بوصنا قزما ، فنوافذهم محكمة لا تعرف الثغر .

أما إن كان القمر بدرا متربعا ، فالعس يقتصر على الفوانيس التى نصبها الناصبون سبيلا يسقى النور على رؤوس الحارات .

الفوانيس الزنيمة التى تحجب عنا منازل القمر .

على البوصة أن تمتد من سُكَّات لتخمد أنفاس الفوانيس ، وتُخرس هلوساتها الإلحادية .

فإن قصرت قامة البوصة ، ركبنا عنق بوصة فى عقب أخرى ، ليمضى النور إلى حيث ألقى .

وكل هذا البرنامج الساخن يُلقى من الفور ، إن كان كلوب عم مصطفى مراد معلقا فى ناصية بيته المطلة من أقصى ميدان الجامع .

عم مصطفى العجوز القصير الضامر والمستهبل ، بدل أن يستجلب نورجا وزوجين من البهائم ، تكلفه الشئء الفلانى ، يعلق كلوبا ليس غير ، والباقى كله بالمجان ، وبذمة وشغف شديدين .

والحكاية أن عم مصطفى ، وتخصصه زراعة الجزر من أجل تقاويه ، تقاوى الجزر ليس غير ، عين التخصص يا عم مصطفى !

بعد تقليع الشجيرات وتجفيفها فى الشمس ، تأتى الدراسة بالنورج ، لإخراج البذور من جيوبها .

يفرش الحزم فى دائرة ، ثم ينصب كلوبه فوقها .

والكلوب الناعس الذى يذيب هالة من جسد الليل ، يجتذبنا نحن الصغار نتوافد مع أسراب الفراش وأفراس النوى والناموس والهاموش ، وحينما نتلاب ونتفلس ونتنطط ونتعاجن وتندمج نحن النوارج البشرية ، لاتبقى بذرة فم



جرابها ، ينصب المستهيل الأريب نصبتة هذه ، ثم يوليها عرض أكتافه ، لينام ملء جفونه حتى الصباح .

أذن خشبية واحدة ، والأخرى مقطوشة ، هي المسرح للمعارك الجارحة ، للنقوذ والسلطان بين جنسى الحدأ والصقور وحدهما ، دون أن يفكر جنس آخر من الجوارح أن يهوب ، والطائران جرى انتخابهما من قبل فى سمائهما انتخاباً تمهيدياً .

هما متواجهان ، والحرس خلف طائره على شكل قوس ، والقوسان فى حركة عصبية شديدة التوتر ، ومركز الدائرة فوق رأس المئذنة ، وبقيّة طيور السماء من كافة الأجناس قد تتمهل إن كانت شبعانة ، أو تلقى نظرة إن كانت مستورة ، أو لاتنبت رغبة أصلاً إن كانت معلقة فى طاحونة القوت .

والصبية من تحت دُمى تحركهم أيدي الأحداث من فوق ، ونبضهم يمسك به القوس العصبى .

وأفراد معروفون يتحمسون لجنس الصقور ، من ذوى الدماء الحارة ، فى قطاع صارخ يشق كل الطبقات ، بزعامة عم إبراهيم العربانى الكبير ، الذى يحوم حول الجامع فى دائرة واسعة ، يتفقد تحركات قواته ، ونظره إلى فوق ، وعصا الماريشالية تحت إبطه ، كرومل الصحراء قائده الروحى .

وذوو الدم البارد ، وهم القلة من أصحاب النظرة النفعية ، يتزعمهم الدسوقى البدويهى ، الذى يبرر لهزائم الانجليز ، ويتنبأ بالانتصار المبين ، وهو داخل دكان بقالته لايريم .

ومنذ بشائر المعركة الانتخابية ، وهو يعلق على باب دكانه بوسط ميدان القهوة ، صورة كبيرة للحدأة ، حارت البرية من أين جاء بها ، إلى جانب صورة تشرشل بعلامة نصره الشهيرة .

مع الشعاعة الأولى تبدأ المعركة ، وقد تستمر ساعات ، وحينئذ تركب غيلان الحزن أرجل الصبية ، وعلى وجوههم تنحاش الغيوم ، لأن المعركة حتى الموت ، ولن يحصلوا منها إلا على جثة لا تقول لهم شيئاً .

فجأة وفى زوايا حادة ، يتهاوى جناح مفرد ، مروحة يدوية استعصت على الانطواء ، والأيدى المشرعة حراب متزاحمة ، يطوحها حدة انكسار الجناح ، والأريب من لاتشترك يداه ، فغالبا ما ينعطف الجناح إليه هو البعيد .

وفجأة أيضا كالصاروخ ينهد في الأرض جسم الطائرة المثخن .

الصقر ، وفوقه بعد هنيهة كالقَلع ، جناحه الباقي المفرد .

الصقر هو الذي هوى ياعم ابراهيم .

مضى عم إبراهيم العرباني على وجهه ، وأنفه كمسمار الساقية المحمي في يد الحداد ، رأس عصاه منكس إلى الأرض .

حتى إذا ما وصل إلى ميدان القهوة ، ولمح على باب لدوده الصورتين الجارحتين ، أصلح من شأنه وشأن عصاه ، وتنحنح مسلكا .

حتى إذا ما حاذى الدكان ، قطب حاشدا كل أعضاء وجهه في اجتماع واحد ووجهها جميعا في نظر حاد إلى فوق البعيد ، ثم زعق :

« الإنجليز الجبانات جبانات » .

وضرب الأرض بخُفه ، وفط مسرعا .

XXX

تنجأ سماء المعركة ، وتنغلق محب على نفسها كالفراخ في أركان بيت القرن .. ومع الشعاعة الأولى دائما ، تشخص العيون الصغيرة إلى أذن المنذرة الوحيدة ، حيث تبدأ طقوس الغلبة .

وعلى شاطئ بحر الصغار ، ولأول مرة ، يخرج الدسوقي البدويهي ، وفي لحظة التماس بين الشعاعة والأذن ، يحط السلطان الجديد على عرشه .

وبعارضة الأذن تمسح الحدأة شدقي منقارها بين مخالبيها ، عندها يقوا الصبية ، وخیال ابتسامه يرتسم :  
- الأسطى أحمد بيغلخ الموس .

وإلى قرن قرص الشمس المورد المظل ، ترفع رأسها ، مدببة منقارها وكتفم جناحيها ، إلى رأس القرن ، وفي انسياب وسموق يستطيل الذيل ، وإلى محب مر تحت تلقى بكسرة نظرة منتشية ، وبمسحة من تجهم العظمة ، تستردها فارد ذيلها في خيلاء ، ثم تذب شيئا أبيض .

والأذن من تحتها ملطخة بالبياض التاريخي الجارح ، بياض ملكي تراه غير السائر في الحارات المؤدية إلى الجامع ، وكلها تؤدي إليه ، تراه العين أكثر والسحب القاتمة تنفرش خلف لطنخ البياض أرضية سوداء .



سمع صالِح الكلاف خطوات سيده الطاعن في السن ، فأُسرع يقفز عن الحمار ، ويلقى بنفسه فوق بعض القش داخل الحظيرة ، متخذاً وضع النوم .  
ودخل السيد ، فألقى نظرة شاملة ، رأى بها الوضع كله ، فقال :  
- يا صالح ، أَمَا بَأْن النوم سلطان ، طيب وإيه اللي قيد الحمار بالشال ؟ !

## وتريكت الغاب

أهـى الأذن أم ماوراءها ؟  
الحاصل أننى أستمع إلى صوتين متباينين تماماً ، صوت بعيد مرهف الرقة والعجيب أن الآخر قرار وقريب ، وكل أذن تختص بواحد لا شأن لها بالآخر ، أذنا حمار ، لكل واحدة القدرة على الحركة المستقلة والتوجه المنفرد ، ثم أدمجُ الصوتين أو أفصل ، ثم بيت القصيد حين أترك للأصوات ذاتها - وكأنها الأسراب في لعبها ورحيلها - تندمج وتتفصل في أداء حر خالص .

وأصل الحكاية أن من البحيرة الملحة ، وبركها المملحة ، حيث ينبت الغاب الريحى الرفيع ، ويتكاثر كالفرّة<sup>(١)</sup> ، من هذه البحيرة الى موقعى فركة كعب فلاحى ، أى بضعة كيلومترات فى عرف الريفيين ، يحكم أنهم يعتمدون على أرجلهم فى حركتهم .

الأشعة الأولى التى فى صفرة التمرحنة على رؤوس النخيل ، فيبدو البلح فى أعيننا الصغيرة الخبيرة التى تقيسه كل صباح ، مشبهاً أو مخدداً وخطته الحناء .

نبدأ يومنا بَأْن نسعى تحت النخل فى مَرَشْه ، نشِتْ ما تساقط منه من جَنَى شقه القمر كما كنا نقول .

ثم نخرج إلى العابنا التى كنا نخلقها من الهواء ، نضرب الزلطة بالزلطة ، والصفيحة بالجريدة ، والحلة بالغطاء ، ومحار البحر تلصقه بأذاننا لنسمع منه ما عبأ لنا من صدى هدير ، كنا نطفح بالسعادة ونحن نستنطق الأشياء ونقولها .

وإذا لمحنا حماراً ، تبينا أذكر هو أم أنثى ؟ فإن طلع ذكر ، تسلمنا أذنه نسر فيها أن « زر » . نظل نكررها حتى يحشرج بالكلام ، ويجرش بالنغم ، ثم ينسلخ فى صوته الجهورى بالنهيق ، وهى قمة ما نحصل عليه من سعادة . كان اكتشاف

( ١ ) التى تصيب الفراخ فتعصف بها .

حمار ربطه صاحبه ، يصرفنا عن أغلى ما بين أيدينا ، كنا نحب الحركة ، والنهيق  
حركة الحركات كلها .

فإذا أطل علينا فراغ ، جرينا إلى الخشبة مجمع المصارف والمساقي ، نسلم  
إليها أجسادنا ، غير عابئين بما فيها من بلهارسيا أو أنكلستوما ، فللعلم المكان  
المنظف المعقم في رؤوسنا ، وللحياة الحياة ، وماء الصرف يلاغى جلودنا ، كان  
الملعون يحولنا إلى مهرشة ، نستعمل فيها شقارف أظفارنا .  
إلى أرض الرُّبَّة<sup>(١)</sup> نتجه ، نقطف العود ، من ساقه وبأوداجنا المنفوخة  
وأنفاسنا نصنع النغم .

فإذا صادفنا في مسعانا حصي أو طوب ملقى ، زعق فينا ، تعرض لأقدامنا  
صدمنا ، لا يترك لنا خناقاً حتى ننحني ونلتقطه ، وعند أول فانوس يلوح ننشن ،  
فإذا انكسر انفثاً عنا غيظنا من هؤلاء الذين لا يسمون .

حتى إذا زامت بطوننا ، وشقشقت عصافيرها ، نزلنا إلى البحيرة . وبين أقدام  
الغاب الراقص ، نسد الأحواش ، ونخلق ونحوش ، لنخرج بمشكاكين من  
السّمك ، ويأتى دور الشوى ، وينسرق منا واحد إلى أقرب أرض ذرة ، يخلع منها  
كيزانا بعددنا تماماً ، لأن مايزيد حرام ، يعاقب عليه الله والفلاح ، لنأكل السمك  
بالذرة المشوية خبزاً .

من هذا البعد أسمع عزف ذلك الغاب الريحي المرهف ، حينما تحرك يد  
النسمة المدربة أوراقه المشرشرة ، ثم تترك المجال للمناشير تلعب على  
المناشير . هذا الريحي العازف هو مواطنى الأول ، لأنه عماد الحياة فى الكون  
المُحِبِّى والفساد والاقتصاد . هو السايح المشخّش بأوراقه الرقيقة حادة  
الطبع ، التى قد تسهيك لتجرح منك إصبعك .

مع طلعة كل فجر تمتد شقارف<sup>(٢)</sup> محب إلى هذا الغاب الريحي ، لُجّة بعد  
لجة ، تحش أصواته ، وتحزمه فى طرود . وعند مطلع الشمس يتهادى بها الجمل  
صابر ، وعلى إيقاعه الجنائزى تشخّش وتهمس ، ورؤوسها تسحل وتتمرمط فى  
الأرض ، وألسنتها تلحس غشاء الندى وهى تسف التراب .

---

( ١ ) هى البرسيم بلغة محب ، وهى فى الفصحى البرسيم بعد الحشة الاولى .

( ٢ ) الشقرف هو الشرشرة التى تحش البرسيم والرز والقمح وتقرط القش .



والصغار دون قامات المناسج ، ينضمون إلى العجائز الطاعنين ، يقشرون هذا الغاب إعدادا لنسجه ، وأجرهم القش الذى يحزم لي طرح فوق الأسطح طاقة احتياطية للأفران ، وللحريق المرتقب .

والغاب كالناس معادن وطبقات ، فعلى النقيض من الريحى ، هناك الكرومى الأبيض الطويل الفارع ، يعتلى جسور الترع العذبة الحادة ، لتمسك أقدامه الجسر المنحدر ، وقيل الجسر هو الذى يمسك بأقدام الغاب البيضاء كالجُمَار ، المناسبة فى زوايا حادة وعصبية وحررة ، لاتمتد إليه الأيدى إلا بالطلب العزيز الخاص .

إذن للكرومى القرار بأوراقه الطويلة العريضة ، والريح تميل عليها وبها ميلان العازف على آلة التشيلو ، مع كمون أصوات المزامير المنحسبة فى عَقْل الكرومى الطويلة .

وأذن مرهفة للريحى البعيد ، والريح تلعب على أوتار الكمان .

آلات التشيلو « العذبة » وهى ترغومع الكمنجات « الملحة » فى حديث مرسل ومنساب .

أما الحفل الساهر الرسمى المشهود ، الذى تنصت له وتقرن كل أذان الليل الساهر ، فمتعده والداعى لوجوده ، القمر بدرا ، أسبوعا فى وسط الشهر العربى .

البدر يتسلطن فوق أحواض الرز ، وينزل إلى مائه يقب ويغطس ، ويتلألأ ويتربع ليتجلى ، فيلهب ذكر الضفدع ، يشد أوتاره بالعزف المنفرد فى قراره السحيق ، وترد عليه جوقة الانثيات المريدات فى نشيد كهنوتى وغزل طويل ، تحسبه الأذن السائمة رتيا مكرورا . ولكل إناء طاقة استيعاب وسعة .

كانوا يصلون العصر فى زاوية الشيخ إبراهيم ، الذى دعا على أهلى بداء المحن<sup>(١)</sup> وماكاد الإمام يختم الصلاة بالسلام عليكم ورحمة الله الأولى ، حتى دس مختار العلمى يده فى جيب جلبابه ، وأخرج بلحة مخددة ، وقرش منها جَزلة قبل أن يسلم الإمام التسليمة الأخرى .

نجحت بلحة فى أن تخرج مختارا من صلاته .

---

( ١ ) ويفسرونها بالارتقاء ، نظرا إلى انه محنة المحن .

يشق ليلى الصوت المقلوب ، المتقطع ، شقرف يَغْزُ يحُش قلب الليل ، تنزوع  
الأبواب على مصاريعها ، يندفع الناس وقد قذف بهم منجنيق البيوت ، متطلعين  
فى الآفاق ، أه النار هناك أهى ، حارة الجامع ، يعدون والجرادل والصفائح فى  
أيديهم ، وأطراف جلابيبيهم فى أسنانهم .

الناس أمام حريق الوشاحى ، فى هرج ماقبل التنظيم ، النمل فى جنون  
البحث ، وطابوران متواجهان ، واحد للأوانى الملآنة ، والآخر أقل عددا للفارغة ،  
يأتى الآتى فيدخل بإنائه رأسا فى الصف ، منسلكا قادوسا فى كبير هذه الساقية  
الهائلة الدائرة فى عجلة .

والعمدة من بيته عبر ترابيع الرز على مشارف المدينة ، يرى الألسنة فيخطر  
المطافى .. ودولاب المياه دوار والنار المجنونة . النار والغاب !  
ويزعق زاعق : الله أكبر . الحاج محمد وصل .

أتى الحاج محمد عدس مهرولا ، وقِدَّة<sup>(١)</sup> البناء فى يده . لحظة وكان فى قلب  
النار ، والرجال كالفعلة وراءه يطفئون من الداخل .

هو لا يستعمل الماء ، بل يكتم النار ، يخنقها وبما تطوله يده . بكيب<sup>(٢)</sup> أو باب  
يخلعه ، فإن لم يجد هد الحائط - وهو البناء العظيم - على أم رأس النار .

لم يكد يفتح له ثغرة إلى قلب النار ، حتى ركبهم الجن ، اندلعت الساقية  
جنونا ، انهمر الماء فى فيضان ، وقاية لحياة الحاج محمد ، الذى لم يعد يظهر .

أفرغت محب ماء الهري على قلب النار حتى انطفأت .

هؤلاء الذين أكلهم يومهم ، وتركت الأرض فى كعوب نسائهم شقوقا تحشى  
بالتراب صيفا ، وتمعجن بالطين شتاء . هؤلاء الذين لا يجمعهم إلا فرح يزغردون  
فيه ويغنون كالتعديد ، وميتم يعددون فيه كالغناء .

× × ×

وبعد الهنا بسنا ، يسمع الجرس الشهير ، جرس المطافى المتصل ، وتهل  
طلعة العربة الحمراء الصفراء الزاهية ، والسلالم الطويلة المنضودة الشديدة  
النظافة ، والخراطيم المطوية فى نضارة ، والقباب النحاسية اللامعة فوق الرؤوس  
كفرسان الصليبيين .

---

( ١ ) التى يحاذى بها الطوب عند البناء .

( ٢ ) منسوج البردى ، والكيب إحنى من السدة التى من الغاب الريحى .



الكل غادر المسرح يتفرج ، وشبح ابتسامة يرتسم فى أعقاب المأساة ،  
والابتسامة تشوبها لذعة السخرية .

إلى ماء الهري يدلون فوهة آلتهم الشافطة ، يمدون خراطيمهم ، ويرفعون  
سلالمهم ، وأخيرا تنطلق مياههم تطفئ المطفأ .

وعم محمد المغلاوى فلاح العلوة من خلفهم يقول : إلا الناس الطيبين دول ،  
مايرووليش أرضى ، ينوبهم فى ثواب ، بدل الميه ماهى راحه كده هدر ؟ !

تمثيلية « إطفاء المطفأ » التى تمثلها الحكومة ، والتى ترفه عن القرية بعد  
تقطيعة المأساة ، تنتهى والمكان الجذب عائم الشفاه .

× × ×

ويومان بعد الحريق يمضيان ، وكأن لم يكن قد اندلع فى محب حريق ، وفى  
اليوم الثالث يعرف كل دوره .

إن كانت النار قد التهمت البيت كله ، فهى القصاص التى تملأ بطين التربة  
والمساقى والقنوات ، وهى المعجنة التى تضاف إليها حمرة الطوب وتراب الفرن  
والتبن الناعم ، وهى القمينة التى تطبخ الطوب الأحمر ، كل بيت لابد أن يمثل ،  
ماعد البيوتات التى لاترى فى علاها إلا نفسها ، فهى المعفاة جييا ويدا ، إلى أن  
يعود البيت بيتا ، وتعود محب محبا ، تمضغ يومها ، وتجتر فى ليلها أحزان  
معاشها ، ويعود إليها كل ما انحسر من عداوات وحزازات ، كأنما قد صُرَّت ساعة  
الخطر .

ومع كل مبزغ شمس تتهادى مواكب الغاب حتى الضحى ، غزل مناسجهم  
بالنهار ، وطاقاة أفرانهم وكوانينهم وجور تدميسهم ، ووقود حرائقهم فى جوف  
ليلهم الأعجف ، فى الشتاء الطويل المولول ، وفى حدة طبع الصيف ، حين تندى  
راحتى ببيع سددي المنسوجة ، لبناء عشش رأس البر من جديد ، وبريق الأمل  
يلمع فى عيون الفتية والفتيات .

كلوا بامية ، وقعت عليه القرعة .

أمسكوا به عريانا ملطا ، وكتفوه يدين ورجلين ، حسب تعاليم اللعبة بينهم ، ثم  
ألقوا به فى تيار الماء بالترعة ، وجروا فى عكس اتجاه التيار ، ليلقوا بأنفسهم  
عائمين إليه ، لانتشاله قبل أن يسيحه<sup>(١)</sup> التيار أو يغرق .

---

( ١ ) يسوچه بلغة محب ، أى يذهب به بعيدا .

وفى الجهة الأخرى من جسر التربة الذى فوقه يجرون ، لمحو فى أرض  
الطماطم ، حبات حمراء تغمز لهم وتلمز .  
سال منهم اللعب ، وسابت مفاصلهم .

والى النداء الأحمر اتجهوا منومين ، وقد نسوا ماعداه ، يمسحون ويزلطون  
من تفاح الفقير ، حتى امتلأت البطون ، وأسرعوا خارجين قبل أن يلمحهم  
الفلاح .

وعندما ارتطمت أبصارهم بدوامات التيار فى التربة ، تذكروا صاحبهم .  
أهم القتلة ؟ أم حبات الطماطم الدموية ؟ أم التيار المجنون ؟ أم القرعة ؟

المؤمن مصاب دائما ، وفى مقتل  
أحيانا . هنيا له .

صحا الخلق على جاموسة ، فوقها اثنان من العرايا الملط ، يركبان خلفا  
وخلفا ، وفى يد كل منهما غصن زيتون بأوراقه يسوقانها .

وكلما وقع نظر عليهما زلزل ، وانفتحت كل ثغور وجهه فى دوائر ، وصاح وقد  
ذعر وتلخبط ، إيه ده ؟ مين دول ؟ !

ويسدد دوائر وجهه ليصبح ثانية : الشيخ يوسف والحاج عبده ؟ ! ثم يخرس  
لأنهما من الثقات الأخيار ، لم تعبهما عائبة ، ولا نبا لسانهما بنابية .

وصمتت الخلايق ، والموكب يشقههم ، بالرغم من انضمام الصبية ، وكأنهم فى  
انتظار معجزة .

الرجال يُشيحون بوجوههم ، ثم ينظرون متضررين .

والنساء يسترقن النظر ، ويضربن صدورهن : يا حوستى ، يا نصيبتى ،  
الشيخ يوسف . الحاج عبده !

والأطفال وحدهم بلا حرج ، صمتهم من صمت الكبار ، إلا أن موكبهم  
المتحرك حول الجاموسة كالخميرة فى نمو مطرد ، مضوا ساكتين وعيونهم تبحث  
عن دور ، إلى أن نطق واحد بصوت خافت : « بالعين » فردوا مسرعين : « يا  
الله السلامة » ، حتى وصلوا إلى ميدان القهوة ، فكان الحدث الأكبر .



امتز أحدهما فوق الجاموسة على غير مألوفه ، انتفض ، تفلت منه الهدوء والرضا ، حتى صار أمر من اللص وقد حوَصِر فجأة .

لم ينظر قط خارج حدود عريه ، كانت خلاياه كلها ومسامه تحس بمناظير ترصده ، وتنفذ إلى داخله ، كان يرى جيدا دون أن ينظر .

فقط مادراه جيدا ، أن يده الشمال أسرع تخفى عورته من أمام ، وأن رأسه وكتفيه وعموده ، تتخذ وضع الجنين ، وأن عينيه دون أن يعتدل رأسه تمسحان الأفق ، تنقبان ، ويده اليمين فى وضع الاستعداد الأقصى .

على خيشة منشورة على سور قهوة يوسف تثبتان ، فى قفزة واحدة كان أمامها ، جذبها فردها وحول عورته لفها .

وقبل أن يستجمع نفسه فى ساقيه ، ألقى نظره إلى زميله فوق الجاموسة ، رأى نفسه ، كالقذيفة انطلق .

لقد زين الشيطان لعصبة الماجنين ، أن يدعوهما للتفاهم على كوب من الشاي المخدر ، حتى يتوبا إلى الأبد عن النصيح والإرشاد كلما مرا .

فى الربع الثالث من ليل خرمس ، انفتح باباهما وأغلقا .

لقد هجّأ .

الحاج سيد هندام بميزانه الشهير الذى لا يطب إلا بحمل من الذباب ، كان عائدا بحماره ، متربعا فوق خُرجه الحافل بالبضاعة ، وشفته الغليظتان مفشوختان على الآخر .

ويبدو أن الحمار كان يتضور حكا ، يريد أن يهرش ، وهى رغبة مشروعة لدى الأحياء ، والحمار لم تعلمه أمه أن يهرش بحافر يده كما يفعل الخلق ، بل بأسنانه للقريب الممكن ، وبحركة فى شجرة أو حائط ، أو تمرغ فى سباحة كأمل الآمال .

ودون أن يستشير الحمار الحاج سيد ، اقترب من بيت الشهاوى المهجور على السكة بين القرية والمدينة ، حيث تأوى عصابة زرزور الذائع صيت بأسها فى الشط كله ، وأغمض لها مركز الشرطة الأعور عينه .

وفجأة سمع الحاج سيد لغطا أخرجه من ملكوته ، أطل من الشباك المفتوح ، وقاب ذراعين رأى وجه زرزور نفسه ، وانعقد على ماهو عليه .

وكل من مرَّ به تبسم ، ظنه نائماً كالعادة والحمار يقوده ، وأمام دكانه بميدان  
القهوة ، بعد مسيرة ترابية طويلة ، توقف الحمار .

لحظتها فقط ، وتحت اللافتة التي كتبها على حائط دكانه :  
« أتوكل على الله .  
وامشى فى حالك .  
وبلاش أر .  
هه ؟ »

تحتها بالضبط ، أغمى عليه .

وقبل أن يتبعزق على الأرض ، تلقفه الجالسون على قهوة أبوالعلا .

تعود عبده نعمان أن يقرأ الجريدة لمن حوله عن حرب هتلر ، واعتاد كلما أتى  
إلى اسم وكالة الأسوشيتدبرس بالذات ، وهو اسم يصعب عليه النطق به ، نطه  
قائلاً : ماعلينا ، وقرأ ما بعده .

وتعود سى إبراهيم صاحب مكتب الخدمة المجانية ، كلما رآه يفعل ، أولاه  
أذنه ، حتى إذا ما وصل فى قراءته إلى : قالت وكالة الأسب ... « ماعلينا » .  
قال له سى إبراهيم : لا قولها .

وللشاعر أبى ربابة فى ليالى ، أمواج وهدير ، وغرق وزبد .. لا يتخلف عنه إلا  
من شاف نفسه ، ونأى به طينه<sup>(١)</sup> أو هندامه . يتعصبون ويتحزبون ، ويحتربون  
فى صفوف أبطالها ، فتدخل الربابة لفض الاشتباك الناشب .

وعم مصطفى الجمل الذى ينشال وينهيد ، إذا أصاب صفيه وأثيره من  
السيرة - العبد أبا القمصان - شكة خيارة ، أو أصاب هو فى مهمته ، فيفتح فمه  
على مصاريعه صائحا زائطاً ، ويغادره مفتوحاً ، ينساه فى وضعه ذاك إلى الليلة  
التالية .

وعم مصطفى تعود أن يأخذ راويتنا الصبى على حجره طوال السهرة ،  
والصبى يندار إليه يتأمل تجاويف فمه ، ويتجراً مدخلاً إصبعه فى إثرها قبضته ،

---

( ١ ) أى ثروته وأرضه التى يطلقون عليها الأطين .



كان الصبى يتلّى بهذا الكهف ذى السرايىب والفتوات عن السيرة وشاعرها والربابة .

والرابع العظيم من هذه السيرة ، الوطاويط وهى تستقر بمحصول الجميز المرتقب ، تلتهم مافى الأطراف ، لأن الفانوس الذى يضئ قلب الجميزة ، هى بالفعل تهابه ، إلا أن الجوع كافر .

وعادة ما يبدأ اهتمام معشر الوطاويط بالجميز بعد ختانه . أما الباط<sup>(٢)</sup> منه ، فلا يأبه به وطواط أو آدمى ، لفقر حلاوته بالرغم من عذريته وكبر حجمه .

أما فى أعقاب ليالى السيرة - والشاعر يتنقل بها من قرية إلى قرية فى فلك معلوم ، حتى يهل علينا الدور - فيتولى أمرها الأسطى أحمد من هالونه المجاور لدكان الحاج سيد ، وهو أعلى من الشارع ببلاطين .

على مسرحه المشرف ، ومن كرسى الزيانة ، ومن نسخة عتيقة بالية ، يقرأ لجمهوره المسن باندفاع دون أن يتلجلج أو يلحن .

وأعجب مافى الأسطى أحمد ، بحر القراءة الطامى ، أنه إذا عرض له من أمور دنياه ما يستلزم إمضاءه ، بصم بإبهامه ، لأنه العاجز عن الكتابة أصلا .

والصبية لاتستهويهم سيرة الأسطى أحمد ، فإذا لم يكن فرح أو مأثم ، يجتمعون لدى شجر الجميز تحت أنوار الفوانيس ، وبصخبهم وضوضائهم يقطعون دابر الوطاويط ، لينجو محصول الجميز العظيم ، وتسرح به بناتى فى حوارى المدينة وأسواقها .. يا اللى بتسقط سكر يا جميز .

قالت الصغيرة : أنت قلت إن بلدية دمياط ، كانت إذا كبر البغل فى السن ، وعجز عن العمل ، سحبوه إلى التل ، وضربوه بالنار ليموت ، رحمة به ، وتوفيراً لثمن طعامه ودوائه .

قال لها أبوها : إى نعم قلت ، نبيهة من يومك .. أكملت : وجدى كبر فى السن ، ولا يغادر سريره ، ولا يترك دواءه ، ولا يتركه

---

( ٢ ) ما لم يختن بان يقضم المشروط من الثمرة قضمه ، تكشف عن جوف ابيض مشرب بالحمرة ، وشفة بعد تجلل بالسواد .

طبيبه ، لماذا لاتسحبه إلى التل ، وتضربه بالنار ليموت ، رحمة به ، وتوفيرا لثمن طعامه ودوائه ؟

وخرس الأب .

كل يوم فى الظهيرة يبعث الصبى بالصحن الصاج ، وفيه التعريفة ( نصف القرش ) يشتري له عسلا وطحينة يتغدى بهما .

كل يوم حتى حفظ الصبى الدور ، وصار يسحب الصحن فى الموعد دون أن يسأل ، إلى دكان هندام .

وفى يوم ، ربما من باب أنه المعلم - وقد أصبح لصبيته كتابا مفتوحا ، خطر له أن يخرج عن شريط المؤلف ، أن يجدد .

قال لصبيه وهو يسحب الصحن أبا تعريفة :  
- استنى يا ابنى ، هو كل يوم عسل وطحينة ؟

وحملت لهجته حدة التأنيب ، وكأن الصبى هو المسئول ، ثم شفت عن التهديد وهو يقول له :

- النهارده تبعد عن العسل والطحينة ، تغير شوية ، شوف لك حاجة تانى ..

وحينما اكتشف أن الحاج محمد يسمعه ، قال يخاطبه وهو يبرر :  
- عسل وطحينة عسل وطحينة ، كل يوم ياسى محمد ، على كده من كام يوم ..

انفجر الحاج محمد صاحب الورشة :

- كام يوم يا حسن ! وأنت بقى لك ست سنين ع المنوال ده ؟ ست سنين عسل وطحينة ، لما دمك زمائتة بيلزق عسل ( وغير من لهجته ) أنت عاوز تغير ؟ طب ليه حتغير ، حتغير ليه ؟ بس ليه بس ؟ ! ( وغير من لهجته ) طب والدبان ، دبان الحاج سيد هندام ، دا كان يجيلك هنا هو ، وياكلك ، قبل دمك ما ينشف من العسل ، ( وغير من لهجته ) كده كويس ، كده عال ، عال العال - خليك زى ما أنت ماشى تمام ، ما تلخبطش - حاكم اللخبطة تجيب الأرض ، ( وغير من لهجته ) ثم إنك حتفتح على نفسك فتوحة ما انتاش قدها ، ( وغير من لهجته ) إرض بقليلك يا حسن ، أحسن لك ما تبصش لفرق .

وزعق حسن فى صبيه المنتظر :

- خليك فى العسل يا ابنى ، أنت لسه واقف ؟



وانطلق الصبى ، ومن خلفه صوت حسن يعلو ويعلو .  
- امسكه من سوسة قفاه ، ما تسيبوش ، أوع يفلت منك .

قال الحاج محمد :  
- أهو كده ياخى ، أجدع من أجدع جوز أنارب .

كل عام فى مولد أبوالمعاطى ، تعودت فرقة على الكسار المسرحية أن تنصب  
فى حارة العيد بالمدينة .

توقف القطار ، ونزل على الكسار ، يحمل حقيبة يد صغيرة ، لأن الذى يبيت  
فيه من ثياب هو ما يصبح فيه ، نزل يتهادى وقد أمال العمامة على جنب ، مطوحا  
بالشنطة فى سبابته ، والغزالة سارحة تماما .

خطا إليه ابن من أبنائى يعمل فى المحطة شيالا ، قال يقطع عليه سرحته :  
- أشيل لك الشنطة ؟

هز على الكسار رأسه أن لا .

- أخذ حته بقرشين بس .

هز له رأسه بإيقاع أصرح .

- طب ستين فضة<sup>(١)</sup> عشان خاطرك .

خرج صوته هذه المرة أن طو .

- طب قرش صاغ .

- طو .

- طب تعريفة والبيعة زى بعضه خسرانة خسرانة .

- باقول لك طق لا .

- طب نكلة<sup>(٢)</sup> .

- قلت لك طق لا لأه .

- طب مليم أحمر ، بس أدوق منك ريحة المعاملة قبل ما أموت .

- وبعدين وياك ، كفاية رزالة بقى .

---

( ١ ) قرش ونصف .

( ٢ ) أى مليمين .

- ياه هي حصّلت ؟ وربنا المعبود اللى خلق الدنيا ، لا أنت على الكسار ولا حاجة .

ومضى يرددها ، وعلى الكسار من خلفه يتبعه وقد انحس دمه .

أن يتحول المرء إلى مرجل ، لا  
يفتأ يعبأ دون أن يصرف ، إنه  
الخنفساء التى تقلوى التيار .

كان يختار التوتة الكاسية الفاردة أذرعها المعشقة ، ليجد بين أيديها وأباطها  
مُنكأ وثيرا لقراءته ، ولم يكن ذلك ليتوافر إلا للتوت داخل الدراوى ، حيث يربى  
الفلاح جاموسه الحلاب .

وبينما كان فى مقرّاته فوق التوتة ، إذ لمح أحد الفتية من معارفه ، يتلصص  
حول الدروة مثلما يفعل ، والفتى أمى ، والتوت لما ينضج ، حتى يغامر بدخول  
الدروة الحصن ، ترى ما وراءك يا فتى ؟

وأقفل الكتاب ، وأسلمه إلى كف من كفوف التوتة ، ومن خصاص الأوراق  
شرع يرقب .

حرك عصفورة الباب الضخم ، حملة من طرفه حتى لا يَصِرَ<sup>(١)</sup> ، ولم تكن أبواب  
الدراوى تعرف الأقفال أو الطبل<sup>(٢)</sup> ، وإن عرفها الفلاح فى بيته ، مع أن الدراوى  
تضم كل ثروته وجدوى حياته .

دخل وردُّ الباب ، وإلى جردل الشرب المركون اتجه رأسا ، وببيديه حملة حتى  
ينخرس ، وخلف جاموسة عوان<sup>(٣)</sup> كفأه واعتلاه .

ومن عرشه من فوق ، لم يتمالك نفسه ، أفلتت منه ضحكة مجلجلة ، جفّلت  
منها الجاموسة الفتاة ، فلطمت الجردل برجلها مذعورة ، فأطاحت بفتاها فى  
المعجنة من تحتها ، وكلما تحرك وطربش للخروج ، انعاص أكثر حتى خرج فى  
لهوّة وقد التأت واحتاس ، وانطلق كالسهم مخلفا جُرة متصلة ، إلى أن اعترضته  
قناة ، فألقى بنفسه فيها .

( ١ ) يصوت .

( ٢ ) أى الكوالين .

( ٣ ) متوسطة العمر .



أما هو ، فحينما نزل عن التوتة ، ألقى عنزاً بوزها فى الأرض يقيم<sup>(٤)</sup> ، وذيلها القصير جداً من فوقها ملفوف على نفسه مرفوع ، وقف ينظر يراود نفسه .

عم محمود الخوجة عجز لا يريد أن يعترف أو يسلم بأفاعيل السن ، بل جنح إلى تماحك الشيخوخة .

ماتت زوجة ونام لأول مرة نومة العازب ، فعاوده الولد القديم جداً بالنساء ، وأصبحت توقظه من أحلى نومه ، خيمة الفجر المنصوبة ، صحيح كما يقول بعد مناهدة معه ، هى تحويشة المية ، لكن برضه لآ . وأروه هانما ، النصف<sup>(١)</sup> العايقة التى تقرط قرطتها<sup>(٢)</sup> مائلة على حاجبها الشمال السائب منها ، ودخل عليها .

- هيه ؟ خير ياعم محمود ؟

- خير اللهم اجعله خير ، الله ، انتو مالكم كده زى الديوك النافشة ، فاردن على قلوبكم ليه ؟

- لا أبدا ، بس عايزين نتطمئن عليك .

- عال العال ، بس البنت ناقصها شوية مجاوبة .

- دى تيجى مع الزمن يا عم محمود .

- زمن ؟ زمن فى بطنك منك له ، كان ناقص على الزمن كمان .

- يبقى مفيش غير انك تتساير معاها ، وتأخذ وتدّى .

وذهب إليها عم محمود :

- يا بت انتى مالك ناشفة كده ، ومقددة ومقلحفة ؟ لينيتها يا شيخة لاجل النبى .

حتى إذا مالينتها ، قال لها :

- إيوه ياختى إيوه ، هو الملعوب ده يجوز على ؟ اشخلعى لى ياختى اشخلعى .

وحينما التموا به ، قالوا معاتبين :

- الولية غلب غلبها معاك يا عم محمود ، تسكت : أنتى مالك ناشفة كده ؟

---

( ٤ ) يجمع طعامها من الأرض ، وهى لغة القرية وعربية معا .

( ١ ) الكهلة : أى من الثلاثين إلى الخمسين .

( ٢ ) المنديل أبو قوية .

تطرى : أيوه ياخنى ، العبى على . الولية عداها العيب ، يكونش ياعم محمود  
والله أعلم - المزراب هو اللى عطبان ؟  
- فشر فى أصل وشك منك له ، اللون فيكم إذا كان يلد عليه ، ييجى وأنا أوريه  
بأن الله حق .

ولكن عم محمود حينما يختلى بالحاج محمد صاحب ورشة الموبيليا ، ونجى  
كل مأزوم ، كان صوته يتلون بالأسى ، وهو يخز له بهمه .  
- يا سى محمد ، أنا باحلم أحلام وحشة قوى ، باقوم من النوم مفزوع .

ويكتفى سى محمد بأن يسايره بعينيه وحدهما .  
- باحلم بأن المزراب بتاع البيت انخلع ، وأحاول أركبه مفيش فائدة .  
فلا يملك سى محمد إزاء هذه الملزمة للمراهق العجوز المحاصر ، إلا أن يخفف  
بالتنكىت الأقرب إلى التبكيت .  
- ما داهية إلا يكون المزراب طاله السوس يا عم محمود .. على كل حال ابقى  
هاته الورشة نغرهوك .  
ويسرح عم محمود بعيدا وقد اكفهر .

## مابش

بينما كانت العربية تمضى بحمولتها من الرزق فى أمانة الله على الطريق الزراعى  
فى حزن التربة الشرقاوية ، إذ انقض عليها أحد الحنانوه كالقضا المستعجل ،  
أوقفها على جنب ، ومن سكات حل الحصان . وكلما أتى العريجي حسا أو حركة  
أو اعتراضا ، قال له زاغدا ، فيداه مشغولتان ، وخيزرانتة غدة شغله تحت إبطه .  
- أنا أعرف المصلحة فين ، ماتعدلش على .

وحينما أصبح لجام الحصان فى يسراه ، وخيزرانتة بيميناه ، ملك الموقف ،  
قال وهو يهرى يدي العريجي ورجليه وصدره وأكتافه وأطرافه ، فرشة وتمهيدا :  
- يعنى حتعرف أحسن منى ؟ حتعرف مصلحتك أكثر منى يا بنى آدم ؟ !

يرد العريجي وهو يتراقص نائيا متفاديا :  
- طب موش بس لما نوصل النقلة ؟ !  
- مابشش ، النقلة حتوصل حتوصل ، والبيع نؤجله ليه ؟



وبلسوعة تترك فى ظهر يده أثرا :  
- ليه نؤجله ؟ !

- يا سيدى موش عاوز أبيع ، أنت شريكى فيه ؟ هو الحصان بتاعك واللا  
بتاعى ؟ ! شىء غريب يا أخى .

وبدفقة على ظهره ، ويبرود :  
- لا بتاعى .

ويسدد إليه واحدة فى منابت الرقبة من القفا :  
- طلاق ثلاثة لهو منباع يعنى منباع ، ودلوقتى حالا .  
- يعنى أبات فى الطريق الزراعى ؟ وفلوس الخلق موش نوصلها الأول ؟  
وبخيزرانات ودية معاتبة وحانية .  
- وأنت زعلان ليه ؟ أنا حاجيب لك الأحسن منه .

وبلسوعة واحدة فى جمع صدره ، يغمس بها كلامه :  
- طلاق ثلاثة حاجيب لك سيده ، ودلوقتى حالا .

وَجَم العريجى وخرس ، وشرع يرقبه وهو يسحب الحصان ماضيا به إلى  
صاحب جديد .

وبين يدي عريش العربية ، جلس القرفصاء ، ودفن رأسه بين ساعديه ورجليه ،  
ثم أجهش فى البكاء .

وبعد غيبة عاد ، ساحبا حصانا مسلولا ، وبين يدي العريش كسكسه .  
من خلال دموع متحجرة فى زاوية ، قال العريجى وهو يتنطط فجأة ، ربما من  
حلاوة الروح :

- على الطلاق ما هو بايت .

رد السمسار وهو يتقرفص من طوله :

- طلاق ثلاثة حيات ، ويصبح يشد العربية .

صحيح أن الماء كان من بلاصها على صدرها يشر ، وأنها ككل بنات الريف ،  
يلبسن لدى العمل - وكل يومهن عمل - الجلاب على اللحم .

صحيح أن نهودها تقط وتنط وتتواشب ، وأن الثوب بلون النهد ملتهب ، وهو يلتصق ليحترق بسواد الحلمة .

صحيح أن صدر حورية محط أعين الشباب ، وصحيح أن الشباب يلقون في أذنها بالكلمة الحلوة .

إلا أن شابا من « طريطر » المجاورة ، ترك الباب للسانه مواربا ، تفلت منه كلمة غزلة ، التقطها واحد من محب ، وانطلق بها إلى محب .  
« عوض من طريطر ، بصبص لحورية » .

صحيح أنه معذور ، وأنه من نفسه ، لكن كيف وهو الغريب ؟ !

ولم يكد المصلون ينصرفون من صلاة المغرب ، حتى كان الخبر على طبالي العشاء ، في الضحى عقد فتية محب اجتماعا طارئا في حارة البوابة النائية عن مجتمع الكبار ، وقرروا بقبضات أيديهم أن يبادروا من فورهم بالردع .

ومن الفجر عبأ كل واحد حجره بحمل من الحصى المدبب ، وتحت الآباط عصي مملوصة من أفخاذ الزيتونة والمستكة ، ومن أذرع التوتة .

وعلى مشارف الترعة حول مدخل القنطرة ، اتخذوا مواقعهم من ضفتهم ، وقدم أول شاب من طريطر ، على عماه قدم ، وإياه فزعوا ، رنوه علقه ساخنة يحلف بها عمره ، وعلى طاقيته استولوا سبيه وأماره .

وعاد الفتى إلى طريطره يحمل أوجاعه ، وضياح طاقيته شرفه .

وبين محب وطريطر تكهرب الجو ، ويا معجل ما يسوء ما بين القرى ويتلبد .

أما « الطواويس » جارة محب على الضفة الترعة نفسها ، ويفصل بينهما هري مائي ، وأرض الزوايدة والفاخورة ، وتدور بينهما عبر الهري معارك التراشق بالطوب ، معارك حبية للتدريب والشحن ، ويتطور الأمر ، لا يستغنى ، إلى ثارات صغيرة وكسّر أحقاد .

أما هذه الطواويس ، فقد أرسلت شبابها لنجدة محب ، مع أنها تواجه طريطر على الضفة الأخرى من الترعة .

على الجانب الأيسر من القنطرة ، عسكر فتية محب في دوريات ، وعلى الجانب الأيمن عسكر الحليف ، وتناثرت أكوام الذخيرة من الحصى المدبب المنتقى .

ولم يعد أحد يعبر . غيرت القرى على الضفة الأخرى طريقها عبر محب إلى المدينة ، إلى طريق الترعة البعيد البعيد .



وأصبح كبار محب المنتفعون - وقد انقطعت الرجل عن بقاتهم وقهوتهم -  
يبيعون الكساد . شح البيض العملة ، والجبن وأقداح الغلة وكيزان الذرة ، انقطع  
حبل التعامل ولم تعد تتعامل إلا مع نفسها ، وأدمنت أن تكلم نفسها قاعدة  
ماشية .

وتغيرت السحن ، الأبناء ييغون الكرامة ، والآباء المنفعة وداخل البيوت ،  
انتقلت المعركة بضراوة ، تبدأ حينما يطبق الليل على القرية حتى يفحصها .

وانسحب الأبناء من أرض المعركة ، ووجوههم منبطحة ، وحينما رأى حلفاؤهم  
ميدان العمليات خاويا ، انحسروا الى طواويسهم نادمين .

وأصبح الصباح فإذا بفتية طريطر المعادية ، يعسكرون في حارة البوابة .  
هجوم خاطف مباغت ، وفي القلب من عدوهم .

وكلما توافد محبى إلى حارته ، رنوه العلقة في عقر داره ، واستولوا على  
طاقيته شرفه ، صادوهم فرادى ، وفي الضحى عادوا إلى طريطرهم غانمين  
طواقى محب وشرفهم .

وآب الأبناء إلى الآباء - وهم السبب - مشرطين ممزقى الثياب ملطخين  
بالدماء ، وإليهم نظر الآباء دون أن ترمش لهم عين ، قائلين في تشف : تستاهلهم .  
بدم .

قالت طريطر فيما قالت : ليست محب هي التي اصطفت لجيش نابليون وهو  
يعبر إلى دمياط ، بالقلل المنداة في حمارة القيظ ؟ !

فأكملت محب وهي تغمز : ولكن نابليون ياطريطر هانم ، مر دون أن يهتك  
أعراض البيوت ، إيه ؟ ! من كان بيته من زجاج ياطريطر ، فلا يقذفن الناس  
بالطوب .

وأطبقت القريتان فمهما معا .

وانحسرت الأحداث عن مطارح<sup>(١)</sup> الكلام ، وانزلت لتسقط في روايا  
النسيان ، إلا قرون استشعار لم تنطو في أعمادها كما كانت ، لأنها انلوت منذ  
البداية ، وعجزت عن الدخول والعودة ، عز عليها أن يحدث كل ماحدث بلا ثمن ،  
فكذا هدرا ، تلك الأحداث التي كان سببها التاريخى امرأة .

---

( ١ ) جمع مطرحة الخبيز .

ذلك الفتى عوض من طريطر ، الذى نال عنه خروف الفداء العلفة التاريفية ، تركت فيه الأحداث لهورية نحا غائرا .

فى السر والخفاء ، تحرى واستفسر عن تلك الهورية .

أبوها فشار محب الأشهر ، وأما يتودد إليها الكل ، ويكتفون شبرها ، رداة محب الأولى ، الاثنان من الشخصيات العامة الذائعة ، والبنية التى تربت على الفيض ، محط كل الأنظار . حد طایل ؟ !

ومن باب النافلة ، وإمعانا مع حب الاستطلاع ، مضت عائلة فى تفصيلها السرى ، ألفوا أخاها الكبير حشاش الحشاشين ، أما الصغير فأكل الصابون ، فإن لم يجده اقتحم البيوت من أجل بروة ليس غير .

إذن العائلة تنفرد على الآفاق بمواهب صارخة ، بعضها غريب ، ولكنه جديد .

ثم إن الزفة الدامية التى قُدمت للأحداث كانت مجلة .

وذهبت الطلائع ، فى أعقابهم المراسيل ، لعل السكة بين الديكين محب وطريطر ، بعد تاريخ طويل من نقار ، ترش بحبات « الملبس الحمص » مع فصوص الملح .

الخروف مطلق فى الجنينة تحت النخل ، يجرى وراءه يسحبه يدفعه ، يلاعبه السَّخَّ النح ، يأمىء له ومعا ، يقدم إليه غمر الربة والحشيش وعيدان الذرة ، يغير الماء ، يفك القيد يربطه فى النخلة ، وأصبح المسئول عنه ، ولا يذهب إلى فراشه إلا بعد انتزاعه منه ، ولما كبر وجعلص ، ابتدا يركبه ، ويلف به فى نزهة بين النخيل .

المهم أنه اتخذ منه الصاحب الودود ، يتحدث إليه الساعات ، ويشكوهمه ، يشكو أباه وأمه وإخوته ، لأنهم يضيقون بهذه العلاقة ويسعون لتمزيقها ، والخروف يبادل الود ، بدليل أنه مقبل عليه ، عنيف مع الغير ، ولم لا يكون الصديق ، وفى الدنيا كلها يتعلقون بالكلب والقط ، أيش معنى الخروف لا ؟ هل وقع من قعر القفة ؟

وأقبل عيد الأضحى ، ونام الأطفال يحلمون بالجديد ، واستيقظ غلامنا ، أسرع يرتدى الحذاء الجديد الذى جعل بوزه ، طول الليل ظاهرا من تحت دابر السرير ، وهول إلى خروفه ليفرجه .



وجد الطريق إلى الجنينة على غير العادة مفتوحا مدهوسا ، والبيت كله وبعض الأغراب فى الجنينة فى حلقة منهمكون تماما ، ورأى .. نافورة من الدماء تندفع .. ومن رقبته .

صرخ وارتمى فى الأرض وصاح ....

وكل الكلام الذى تعلمه ، صمم أن يخرج معا ليعبر به ، ولم يخرج بالطبع إلا شهقات وقصاصات كلام وأشلاء ، وسط تيارات عنيفة من الهواء .  
وانعقد لسانه على ذلك .

أنفق الأب ربحا من العمر مع الدجالين ، يأتى بهم ليعدوا للفتى مأكولا أو مشروبا ، يقرأون عليه الأسحار ، ليعرض فوق السطح العالى ، من أذان العشاء إلى الفجر ، ليشربه أو يأكله فى الصباح ، حتى استنفد كل الدجالين بمحافضة دمياط ومديرية الدقهلية دون ما جدوى .

وأقلع الأب عن البحث عنهم ، لأنه استنفدهم .  
ولكنه لم يقلع عن الخرافات والمخرفين .  
وبرر قائلا : أصل ربنا ما أرادش .

كان مبنى المدرسة الابتدائية بالمدينة ، يطل من بعيد عبر أراضى الرز أو البرسيم ، وكان يخص خيالة محمد على ، وفناؤه الواسع يرى فناء المعهد الدينى المجاور .

يقول راوى الرسمى ، وكان أيامها تلميذا بهذه المدرسة الابتدائية : أضرب المعهد الدينى ، وتجمعوا فى الحوش يزمعون الخروج فى مظاهرة تطوف بالمدينة ، والعساكر يتخذون مواقفهم ، بالمنتزه الصغير الذى يتوسط الميدان الواسع ، ويضم إلى جانب المدرستين ، المحكمة والمحافضة والسجن .

قال الراوى : وانبرى لهم مدرس التجويد مبصرا وناصحا ، وهو يشير إلى العساكر المستعدين ، قال وهو يشبع الحروف من مخارجها ، والمدات والغنات والإملات الواردة ، كأنما يرتل الآيات ، قال :  
« هؤلاء عساكر ، معهم بنادق ، فيها نار » .

بيت تحفة ، بل متحف ، ولكنه مهجور تماما ، صار مجرد مدخل ملتو ومفتوح إلى جنيئة الغول .

لبابه طبلة لسانها خشبي يمتد حتى يربو على المتر والنصف ، يدخل في مجرى بقلب الحائط ، أما المفتاح فيصل إلى المتر ، ترى أين الجيب الذي يسعه ، أو الكتف الذي يحمله ؟ ولكنى أنصح باتخاذة عصا أو عكازة مع الحذر حتى لا تتخلع أسنانه .

وبيت الغول هذا يقع أمام بيت راوينا الفتى رأسا .

أما تحفة التحف في هذا الذي يقع على هرى الماء الذي يحزمى من جميع الجهات ، فهو الحمام ، تنزل إليه خمس عشرة درجة ، خمسا في مواجهة باب الحمام ، وعشرا تنحدر في زاوية قائمة إلى الماء ، ومصدر الماء إلى غاطس الحمام ، فتحتان تعلوان إلى مستوى الماء في الهرى في الدورة المائية الثلاثية ، يدخل الماء الطازج الجارى .. وفي آخر يوم من دورة التحاريق ، تفتح فتحتان أسفلهما إلى مستوى الماء الضحل في البحر - والهرى هو بحرنا الممتد - لإفراغ الحمام العظيم وتنظيفه لاستقبال الماء الجديد .

أما البلهارسيا وهلمه ، فلم تكن قد ذاع صيتها ، وبالتالي لم يكن لها نشاط يذكر ، لأن المعرفة هي التي تخرج أمثالها من قصورها العاجية ، المهم أن غلامنا كان من طقوسه في كل ضحى ، أن ينسلت إلى الحمام ليملك الساعات يتأمل نباتا في حجم الفولة الممتلئة ، يخرج من الجدار الرطب ، قرب المستوى الأعلى للماء .

في النهار تنتفخ كأسه ، ويروق لونه ويزهو إغراء ، وينفتح في استدارة البدر ، رطب الجوف ، يندع بما يسيل له لعاب الحشر الطائر ، وكم يستهوى الناموسة والهاموشة فإذا شرفت ، وذاعت عسيلة الكأس ، أشتحت الحشرة ، فأملت لها النبتة وأمهلت ، حتى يقع ضيف آخر ، فتغلق عليهما فوهة الكأس بتؤده ومهل ، وفيهم العجلة والثقة بين الوحش الغض والفريسة متبادلة ؟ ! وتفرز عليهما العصارة الهاضمة ، وهم ياجمل ، لتنتفخ بوابة الجحيم من جديد على فيض الكريم .

نبات جارج ، كالطير الجارج ، وإن كان أجرح ، لأن صيده يأتيه بكامل اختياره إلى عقر داره ، اكتشفه غلامنا ، وأبقاه في قعر ذاكرته قدس أقداسه ، خشية أن يعصف به الصغار أو الكبار . لا يأمن .



الشيخ أحمد الدّنون<sup>(١)</sup> كفيف ، لُقّت شهرة كُفّه<sup>(٢)</sup> الآفاق في انتقاء القماش بألوانه ، يمسكه بين أنامله الثلاث ، يجريها على القماش خلفا وخلفا ، مصيخا إلى أنامله بأذنه ، فيدرك اللون من الفور ، يسمعه .

ينتقى ثلاث قطع ، ولتخبطها أنت أو البائع ، ما شاعت لكم اللخبطة ، ولتخفوها أصلا ، وبعد أسبوع ، أتوا به يستخرجها عزفُ أنامله إلى أذنه .

ربما كان لتركيبة كل لون ، واختلاف عناصره عن غيره ، ما يجعل لكل ملمسا خاصا وبصمة ونبرة ، لا يدركها إلا مثل هذا الضرير الفذ ، وربما لأنه من عتاة المؤمنين بالخرافات وكرامات الأولياء ، من المشى على الماء والشفاء والعطب والحل والربط ، والتواجد في المكان بسرعة الخاطر .

يعمل صبيتا<sup>(٣)</sup> وخطيبا وزعيما للمبتدعين ، والمناوىء الغليظ للشيخ عبدالحميد زعيم أنصار السنة ، المتفقه في علوم الحديث والقرآن .

كم دارت بين الفريقين من معارك دامية ، تلكأت في أقسام الشرطة ، ولدى الأزهر بالقاهرة لبدء الرأي ، من انتصر منهما استولى على مسجد النعمان ، وتحفّظ على مفتاح المئذنة أداة الإعلام ، وانسحب الآخر إلى زاوية الشيخ إبراهيم ، تأهبا لجولة جديدة ، والحرب بينهما عوان .

إن تغنت المئذنة ، وسيدت محمدا ، فهو الابتداع والتزيد والبحبة على التراث النبوى ، وإن هى نادت الناس للصلاة وبمحمد مجرد ، فهى السنة المحمدية ، وكم أخذت هذه السيادة وأعطت ، حتى صارت الرمز للاحترام الشكلى والتبجيل الظاهرى ، وعدمها الاتباع الحرفى والانقياد .

---

( ١ ) الدنون بلغة القرية مع حفظ المقامات ، هو بربور الصغير كلما أطل من أنفه نشفه ، أى شهقه ليعيده بلغة محب ، وكأنما قد نشف .

( ٢ ) أى كف بصره .

( ٣ ) من يتغنى بالقرآن في المحافل .

الحاج إبراهيم صاحب مكتب الخدمة المجانية بميدان القهوة ، طلع فى مَحَه  
يوما أن يفلح أرضهم بالطواويس بنفسه ، فاقتنى ضمن مواشيه جملا بدل  
الحمار .

ويوم أن ركب جملة ، وببده السلطانية الغويطة ، وبداخلها القرش الصاغ  
تعريفتان ، وياسلام لو كان خمس نكل ، حتى تشخشخ وتعلن الإيقاع المجنون .

سار به الجمل من بيته إلى ميدان القهوة ، حيث قدرة فول عوض مراد ،  
ليشترى بالقرش مدمسا ، يومها وقف ناسى على رجل ، توافدوا على بكرة أبيهم  
طول الطريق ، الذى لايتجاوز فركة كعب الحذاء لا الحفاء .

كان فرجة ، لأنه وهو السيد المنيع ، لا يستنكف سلطانية الفول ، ولا تعنيه قط  
اعتبارات الشكل الاجتماعية ، ثم كيف يحمى الفول من الانكباب على وجهه  
والانسكاب ، من حركة الجمل الأرجوحية المتحدية ؟ .

ومن قبل هوى الخيل ، فاقتنى رهوانة يعلو جبهتها غرة بيضاء ، يختال بها إلى  
المدينة ، ليعود من طريق التربة الشرقاوية ، ثم اقتنى متوسكلا ذا قصف مدو  
أعلى من صوت المطلقة ، يلفت ويجذب .

بالفعل كان سى إبراهيم شياكة ، يفعل ما بدا له ، وذا ميول استعراضية .  
X X X  
وبجوار بيتهم العتيق ، قامت دهرا قاعة ضخمة ، جدارها يناهز المتر سمكا ،  
وفى حائطها فراغ غائر ، زانه يوما دولا ب حائط تحفة ، مشغول بالمنمنمات .

وشرعوا يهدمون القاعة ، وفى القيلولة جلس عمنا إبراهيم مع عم مصطفى  
فلاح جنينتهم الخلفية ، فى ظل الحائط يتسامران ، وفجأة أحسا بالحائط الهائل  
ينقض . وقفز كل منهما يبغي النجاة .

أما عم مصطفى فقد استجاب للغريزة ، فجرى مبتعدا ، ولكن طرف الجدار  
لحق به ، فبططه شريحة لحم واحدة لا معالم فيها لملاح ، إلا الإطار الخارجى  
للجسم كله ، وقد حدده بدقة قالب الحائط المنقض .

وأما الآخر فقد أعمل زناد عقله اللماح ، فجرى فى عكس الاتجاه إلى الداخل ،  
إلى مركز التقاء فراغ دولا ب الحائط بأرض القاعة ، فنجا بعد قضاء عام فى  
المستشفى ، وخرج ، بعكازة لازمت رجله ، أما تنقلاته فقد تفتق عن اقتناء عجلة  
نسوية تغنيه عن رفع رجله عند الركوب .

جلس إليه ابن أخته يوما يتسامران ، وإذا ببطة تظلع فى مشيها ، فزغده خاله  
مشيرا بسُخر أسود إلى عرج البطة قائلا :



- أنا دلوقتى شايف نفسى تمام فى المراية .

وأطلق ضحكة رائقة .

.. هدمت القاعة ، وبيعت أرضها للجلادى صاحب الدروة والجاموسة بعرش النخيل المجاور ، وأقام بها بيتا ، استأجره الحاج إبراهيم نفسه بعد أن آل بيتهم الملاصق للسقوط .

وتناهى إليه يوما أن امرأة الجلادى تبحث لابنها عن بيت بعد أن اهتدى إلى نصفه الحلو ، فذهب إليها فى دروتها ، وقال لها :  
- إنتى ما قلتيش ليه إنك عايزة البيت ؟  
- أقول ازاي والكنون<sup>(١)</sup> ما يصرحش !  
- ومين قال لك إنتى بامشى ع الكنون ؟ ! شورى<sup>(٢)</sup> الولد ، وقبل الدخلة تعالى استلمى البيت .

قال الراوى : كنا فى المدرسة الثانوية المطلة على محب ، وابنوب أفندى مدرس التاريخ ، يذرع بنا ساحة التاريخ الفرعونى المترامية ، وأمام كنوزه يتلکأ ، وفى محرابه يتحسس الخطى ، وبصوته الملون يلهب منا المشاعر ، ويستولى على اليقظة والانتباه كله ، كنا نستزيده ونحتشد له ، مع أن مايقول لم يكن على صلة بالمقرر أو الامتحان .. وكان كل ذلك يعبأ فى مواجهة الأوغاد من الإنجليز المحتلين .

وعلم الأستاذ عبدالحق شرف الدين مدرس العربية والدين ، أن فى الساحة من يستولى منه على الأفئدة وذوات الصدور ، وهو المالك لخاصية اللغة والتأثير .  
وانبرى له فى حقله بـ « فرعون » ، ومن نظر القرآن .

ونحن تلاميذهما نتحمس له أيضا كل حماس ، وإن تناقضا من الأساس ، واحد يبنى ويشيد ويزهو ويمجد ، والآخر يهدم ويجتث فى عمارة واحدة ، والبناء والهدم فى داخلنا نحن الصغار .

هل كنا نستشعر التضاد المخيف بين الحركتين ؟

---

( ١ ) تقصد قانون الإسكان .

( ٢ ) أى جهزيه بمتاع بيته ، وهى الفصحى أيضا .

ربما لأننا كنا نؤمن بالدين وبالتاريخ طاقات هائلة ، أو ربما كنا نتغافل فنرى الفرعون غير الفرعون ، وربما لحرصنا الشديد على الأستاذين جعل لكل منهما فى صدورنا أرضا وحدودا ، فقط عندما كان الواحد منا يخلو إلى نفسه ، كانت الحدود تنقع وتنشع ، وتتصاعد الفقاعات .

ساعة الغروب تماما ومن الغرب يعودون ، لأقدامهم المجرجرة صليل السلاسل ، فلول جيش منهزم ، فى جنازتهم يسIRON .

فى أيام التحاريق<sup>(١)</sup> ، فى برد العجوزة<sup>(٢)</sup> يأتون ، هم الشملتية من عمال التراحيل ، يأتوننى بالتحديد ، فى موعد لا يخطئ من كل عام .

يقيمون فى النيل ، سدا طينيا هائلا ، يجمع شمل طلائع الفيضان . من اللحم الحى للأرض الزراعية يقطعون ، ويلقون فى عرض النيل .

فى أيام التحاريق تمد القضبان ، من الأرض المنذورة عروسا للنيل إلى الموقع الجديد للسد ، عربة لكل شملتى يملا صندوقها الصاجى ، الكيلومترات يدفعها برجليه المزروعتين فى الأرض ، والأرض ترتفع أمامهم دائما إلى النيل العالى ، من طول ما أخذوا منها له .. لا تنخفض أمامهم للسخرية السوداء ، إلا فى العودة ، والعربة فى خف الريشة .

والجمل بأربعة مليمات ، لم تزد العمر كله ، وبين دعائم الخشب يقلبها فى الماء ، لا غش فى إنتاج ولا قفز على أكتاف ، ولا سبق لقوى على ضعيف .

فقط العربات المحملة على قضيب تمشى بالدفع ، والفارغة على قضيب تجرى بالاندفاع ، والعربة لا تقفز فوق عربة ، بالدور . والصنديد كالرديد ، والمفتول كالمهزول .

فى الموعد الذى يحدده الفيضان الجديد ، وفى احتفال مهيب ، يفتحون للماء ثغرة ، مجرد فتحة ، فى دقائق يطيح الماء المتراحم بكتلة بعد كتلة ، وفى سيل عرم ينتهى كل شئ ، ولا يبقى إلا الفيضان نفسه يجرف فى دوامات إلى البحر .

الطواويس تلك الأرض الطاووس ، كانت على الأرضين كلها مشرفة ، وجاء السد الترابى فنتف منها عرفها وريشها ، وأكل إشرافها ودلها على الأفاق حولها ،

---

( ١ ) شتاء حين تنحسر مياه النيل .

( ٢ ) هى الأيام الثمالية الأولى من شهر امشير القبطى ، والعجائز أكثر تائرا بها .



أكل منها مرتين : السموق كله والتميه ، بكل ماكان يحمل يومها من ورق للبرسيم  
ثلاثي أخضر رقرق .. والثانية بالعمق الذي يأكل به من كل الأرض التي كانت في  
يوم ما سفحا لها ، حتى تساوت عائشة بعيوشة .

كم يأكل الفيضان النهم كل عام .. من حرما ادخرته الأرض قرب بشرتها منذ  
آلاف السنين .

× × ×

القاعة الضخمة التي تتوسطنى ، قاعة حميدة الأرملة ، تؤجرها لهم كل عام  
بريال فى الشهر .

فى هذا الجحر الكبير يأوون جماعة ، فى الركن القصى المظلم يحطون الكريك  
والفؤوس . النار الموقدة دائما تتوسط المكان ، كالطيف يتسلل الواحد بعد الآخر  
إلى دكان الحاج سيد ، يشترون غموس البتاو<sup>(٣)</sup> الذى جلبوه معهم ، ولا غموس  
لهم إلا العسل ، مع المش والبصل ، لا طعام لهم غيره ، ولما لم تكن معهم أنية ،  
تفتق لؤم الحاج سيد عن أن يبيعهم العسل فى قراطيس ، كل واحد بقرطاسه ،  
والأكل عندهم بالطبع منفرد .

وتفتق جيب الشملتى بعد أن يأتى على ما فى القرطاس من عسل بوجبة البتاو  
اليومية ، أن يتحلى بالقرطاس الورقى نفسه ، زلاية شهية .

ومن أجل الشاى يتحلقون حول النار ، وحيث يجلس كل يسلم جنبه للأرض  
التراب متلاصقين ، لعل فى الأبدان أرماقا تتدافأ .

ليست لهم رغبات ، ولم تنبُ منهم نزوات .

يعملون بأربعة قروش فى اليوم ، ينفقون ستين فضة ، وبالمائة فضة الباقية  
يعودون إلى نسائهم المنتظرات ، وبقية العام برابير جافة فى عرض نداء .

× × ×

ظلال ، منومون ، لاحس ، لا يتحدثون أبدا ، والحديث جهد ، لا ذرة من فائض  
طاقة بعد الأحمال العشرة أم أربعة مليمات ، أبدا لا يخرجون عن الشريط .

لا ينفعون من القرية إلا الحاج سيد هندام فى عسله ، وحميدة الأرملة فى  
قروش قاعتها ، أما مشهم والبصل ، فمع بتاوم يأتى .

---

( ٣ ) رغيف مرحرح واسع جدا وهش ، تضاف الذرة إلى قمحه لتقطع عرقه ، فلا يعلو ولا  
يشغل حيزا ، بعض المحافظات تستبدل بلقمح وعرقه البامية الجافة مع الذرة ،  
وبعضها تضيف الحلبة .

سته أشهر فى العام ، مائة وعشرون قرشا ، هى كل ما تعرفه حميدة من عملة فى العام ، إلى جانب انتدابها خبازة أحيانا بالرغيف . حميدة الشملتية .

فقط رائحتهم الخاصة جدا ، بعد رحيلهم بكل رحيل ، يخلّفونها ، رائحة الحلبة التى يعجن بها بتاوهم ، فى نشع خلاصة عرقهم ، وقد ذهب به الشقاء المتواصل ، « روح » عرقهم القوى النادر ، منذ كانت أجسادهم لا تعرف الماء .

الرائحة التى تهواها وتهوى إليها أسراب البراغيث ، وقطعان القمل .

وفى نهاية العمل بالسد فى قلب الصيف ، لا يتغير منهم شىء ، الشتاء القارس كالصيف الجهنمى ، الرداء القصير لا يزيد أو ينقص . والنار هى النار ، والنوم حول محرابها هو النوم .

النار التى تظل طول الليل موقدة ، لعل طقطقتها ولسعها ، تغنيهم عن طقطقتهم قملهم ، ولسع براغيثهم .

## مسك الختام

فى الضحى يدخلنى حمار أعجف ، يكب هو وصاحبه الأعجف على خطوة ، وينغسان على أخرى ، ولهما رائحة الزفارة المجففة .

لايكادان يصلان إلى ميدان القهوة حتى يصحوا معا . يترجل ، وبالرسن يسحبه إلى داخل مصارين الكفر ، يعرف قصده بالضبط .

فى زقاق مقفل يتوقف ، وعلى أقصى شباك إلى اليمين ينقر بعصاه ، وينادى :  
- خالة<sup>(١)</sup> حسنة .. بعودة .. البطيخ اتحرك فى بزره .  
لايزيد عليها .

تخرج إليه خالة حسنة وهى تجر مقظفا مترعا ..  
- والله فى معادك وجيت يا عم نعناعة . حساباتى ما تخبش ، هى الطورة حصلت كام السنادى ؟ أوع تقول زى عام نول<sup>(٢)</sup> ؟ .

---

( ١ ) تنطق هكذا ( خَلَّت ) أى خالة .

( ٢ ) أى عام لول ، أى العام الماضى .



- وإيه اللي حيفير السعر؟

- البطيخ كل ماده بيشم نفسه ، والصنف أصبح النهارده شاحح . هو عاد حد  
يا حسرة بيعملها بره بيته ؟ كل بيت دلوقتى بكنيفه<sup>(٢)</sup> والبضاعة لما تشح يا عم  
نعناعة ، تقوم تغلا .. قولتك إيه يا سيد العارفين ؟

وخالة حُسنة تقضى نهارها تُعس الحواري ، والفرخة عدوتها اللدود ، لأنها  
كالوطواط للجميزة ، والغراب للبلحة ، وهى تعرف فراخ البلد على داير فرخة ،  
وكلما رأت فرخة سائبة ، زعقت بصاحبيتها منذرة :  
- يا أم ملح ، عضى قلبى ، ولا تعضى رغيفى .

وكلما مرت بصبى يجلس القرفصاء إلى حائط ، دعت له بالبركة والستر ، ثم  
قالت موصية :

- ما تبقاش يا سندی تعملها بعيد ، قرب من خالك حسنة ، ينوبك فيها ثواب يا  
نور عينى .

وقامت حوله ديدباناً شرساً ، ومن كل حين تخاطبه .  
- على أقل من مهلك يا حبيبى ، خد راحتك يا عمرى ، هات آخر ما فى عزمك  
وعزم أمك وأبوك ، ما تخليش ، نصف دى النضافة من الايمان يا حبة عينى .  
وفى مزبلته المكسوة بالخيش الذى سدت مسامه ، يلقي عم نعناعة ما تعدُّ له  
خالة حُسنة ، حتى تستكفى المزيلة .

وأخيراً تلقى إليه بأربعة فوق البيعة ، قائلة :  
- وادى طورة ، ملو العين الفارغة .

وبشخطة قال :  
- حطى كمان واحد .

وبزعقة قالت :  
- والنبي ولا قمطة .

قهوة يوسف ، ومزاريب السماء تصب قرب الشتاء ، وعم يونس الفلاح يجلس وعيناه وأذناه مقرونة إلى خارج الباب الزجاجي يتطلع . ينادى القهوجى : شوف كده يا ابنى فيه حد بينده لى ؟

يفتح القهوجى الباب الزجاجي ويتطلع ، الطريق خاو تماما إلا من سيول المطر المنهمر ، أبدا يا عم يونس .

وعم يونس تزداد عينه وأذنه توترا ، نادى القهوجى وهو مستغرق فى النظر إلى الخارج : أنا سامع حد بينده لى ، بص كده شوف يا ابنى .

يفتح القهوجى الباب ويطل : والله يا عم يونس ما فى أى حد خالص . وعم يونس تزداد أوتاره السمعية والبصرية توترا ، بينما هو لا يجلس على أبعاضه .

ينهض ويتجه إلى الباب . يفتحه ويخرج ، وبالعمود الذى يحمل عريش الباب يمسك .

تتهاوى يده ويسقط .

لقد خرج يلبي نداءه الخاص ، الذى لم تسمعه إلا أذنه هو .



« « » » حیات

## المفتاح الضائع

( تمهيد )

ديك البرابر<sup>(١)</sup> من حبه للفجر ، الذى يطلقه من سجن الليل ، قبل أن ينام ، يودع طرف حبله الصوتى أمانة بيد الفجر ، حتى إذا أطل ، شده منه ، فهب الديك من فوره يصيح .

وديوك برابر محب تسعة تؤذن للفجر ، وديك آل سعد يطلق أول صيحة ، لأن بيته فى أقصى الشرق وعلى ربوة ، أى أقرب نقطة من محب إلى الشمس أم الفجر .

وغلام يحرك رأسه ، عصب السمع عنده أودعه هو الآخر قبل أن ينام حناجر الديكة التسعة .

تتصايح الديوك كل فى دركه ، الواحد بعد الآخر ، وكل ديك يشد خيطا ليوقظ فى رأس الغلام حارة ، وبصياح الديك التاسع والآخر ، وهو ديكهم ، لأن بيتهم فى أقصى الغرب ، يكون قد صحا تماما ، وهو يفكر فى هذا الديك المسحراتى ، صاحب أضبط ساعة بيولوجية حية ومتحركة على الأرض ، نظرا لاتصالها الوثيق بنبض الشمس ، أم الزمن .

وقبل أن ينهض ، يطل برأسه ليحدد الوضع ، إن كان فجر الجمعة ، استسلم

---

( ١ ) البربرة : الأنثى من النجاج فى أول عهدها بالببيض .

لسريره ثانية ، لأنها الساعة التى يستحم فيها كل الكبار . ولا أدري لم يسمونها  
فى محب ليلة الرفسة ؟ .

ينسلت من فراشه متحاشيا خرفشة الحصير ، وتحت إبطه مداسه .

وكل سحر تأتى عليه لحظة يكره فيها « الصوت » كره الغمى ، هى زنقته مع  
الترايبس والأبواب ، خشية أن تفضحه فيقع فى المحظورين الصارمين : العقاب  
والرقابة .

الترباس الذى لا يحطوله أن يصطك ويجهر إلا فى هذه الساعة ، بالرغم من  
موالاته نهارا بلحسات الزيت خلصة .

وبعد أن تطمئن سقاطة الباب فى منامة مجراها ، ينتقل مداسه ويمضى إلى  
الغيطان .

يلمح نواة بلح ملقاة ، يلتقطها ، ويقلبها . النخلة بكل طولها وأحمال بلحها ،  
وجمار قلبها الأبيض ، وأوراد خوصها مع الريح والطير الذى يأنس إليها ، كم يود  
أن يرى طلعة هذا المارد المحبوس فى قمقم النواة .

اختار مكانا لائقا ، وغرس فجر النخلة .

## ( ندى )

الجلجل الصغيرة فى أعناق المعيز ولآلىء الندى .

القطرة الطفلة تتطرد فوق قمة الورقة الإبرية المتجهة إلى السماء تتطلع ،  
وقطرة كبرت وتحلقت حول الشوكة كالأخاتم ، والحلقة تكبر تهبط تستدير  
تستطيل ، ومن عنقها تتشبث تتأرجح تتصايح تولول وتجار .

سمع الغلام القطرة الصغيرة المنتشية فوق إبرة ، تقول لأختها المشنوقة من  
شوكة : لماذا تحملين الهم ؟ أنت الثور الذى يحمل الأرض على قرن ؟

قالت المشنوقة : ألا ترين المصير ؟ .

قالت الصغيرة العفريته : أراه جيدا ، عما قريب ترسل الشمس شعاعها ،  
فنتعلق به ونصعد ، وفى الفضاء الحر نتنادى ونتجمع فى سحب ، تدفعنا الريح  
وتهدد ، بلد تشيلنا وبلد تحطنا ، إلى أن نسقط فى مكان ما ، مطرا أو ندى أو  
بردا ، ريك يسهل . ألا تعجبك هذه السباحة الفضائية الغالية ؟ تجدد شبابك  
وصفاك وألقك ؟ أنا شخصا مزقطة أتعجل الرحيل .



قالت المتدلية بأسى : أما أنا فرحلتى إلى الموت والفناء فى الأرض ، انظرى إلى تحت ، سأسقط إلى هذه الأفواه الفاغرة تبتلعنى وأفنى .

أسرعت الصغيرة بصوتها المسرع ، أه يا عبيطة ، تفنين ؟ ! ، ألم تسمى يا أم جهل عن القانون الكونى القائل : « المادة لاتفنى ولا تستحدث » ؟ لا ذرة بالزيادة ، ولا ذرة بالنقص ، كل ما هنالك أن رحلتك سوف تكون تحت بدل فوق .

قالت المشنوقة وهى تنشج : إذن سوف أفقد اعتبارى وعنصرى .

قالت عجوزة خبير : يا بختك ، هذه هى الرحلة الباطنية الصوفية العظمى ، يموت الحى ويظهر فى تفاحة أو عصفور أو جحش أو قطة أو قنفذ ، أليست هى الأعمق يا عبيطة ؟ هل فقدت روح المغامرة والاستطلاع ؟ فكيف يا شيخة . النبى تبسم ...

لم تكمل ، لأن المشنوقة سقطت وتلقفتها الأفواه ، أفواه التربة المتراصة المترصدة ، والقطرة صدى وهى تبل الصدى .

تمسح التربة أفواهها بأكمامها ، ثم تندار تقتل شواربها .

ولم يغادر الفتى معزوفة الندى إلا بعد أن سمع التربة تتجشأ ، وتتفتح فيها أعين القطاط من جديد .

### ( طابور المدرعات )

أرض البرسيم والحزون الذى يرفع بيته القوقعة فى الفضاء ، وبزاوية ٤٥ درجة ، ويبدو أنه الوضع الاقتصادى الأمثل ، يحمل بيته كظله ويسعى .

أصوات الجنازير تهدر وهى تدرج فى طوابير ، مخلقة خطأ من الأسفلت الأبيض اللزج ، لذا كان اسم الشهرة الذى عرف به « البزاق » .

وحين تهبط منحدرًا ، يخفت صوتها ، والراجع أنها توقف المحرك ، وعند الصعود يعلو الصوت ويصخب ، والسُّبحة الموضومة فى علوها وسفولها ثم علوها ، فيلق خارج إلى طابور المدرعات الصباحى .

الحزون التى تصنع بيتها من ذوب فؤادها ، بنموذج هندسى واحد ، لا يتغير إلا فى البصمة .

وتتوافد صائحات الدبابات ، البنات بصحونهن الصاج المقشرة ، وغيطان  
حللهن المجنزرة<sup>(٢)</sup> ، إلى جسور ترابيع البرسيم من أجل الصيد .

حتى الحزنون ؟ !

حينما تفاجأ الطوابير بالخطر الداهم ، تختلج الصفوف ، تزعق المؤخرة :  
« التتار التتار . التتار قادمون » . أما المقدمة فتجأر : « يا خفي الألفاف ، نجنا  
مما نخاف » .

في سرعة تتم حركة انتشار ، تلقى بنفسها بين سيقان البرسيم وأقدامه  
المتزاحمة ، وتحت أوراقه الساترة ، تندحرج وتختفي .

أما من فاجأه قضاءه وقدره ، وهو في وسط الجسر ولم يلحق ، فهو الأسرع إلى  
إنزال القواقع الدروع ، والتحصن داخلها ، وقبل أن تلامس الأرض ، بالضربة  
والمفتاح توصلد البوابات ، وقد تحولت إلى حصي تدحرجه الريح .

في لمحة يتحول المعسكر الصاخب إلى جبانة تصفر فيها الريح ، ربما لأنه  
خطر الموت ، أو التنظيم الإداري المحكم ، وربما الأخلاقى أو الدينى . من  
يعلم ؟ !

تقشها البنات قشا ، لتعود كل صبية بوليمة حية شهية لبطها ، أو تبيعه لبط  
الموسرين .

كل فجر وأمام حبة عينه ، تدور رحي هذه المذبحة لصديقه الحزنون .

### ( فقايع الشبارة )

يطل السمك من سطح مائه الرجراج ، يستقبل النور والضياء ، وعلى رائحته  
التي لا يخطئها عُمره ، يأتي قطبات ليلته جائعا ، يحذر شديد يتقدم متحفزا ، من  
أين أتى ؟ من تحت طقاطيق الأرض .

الشبارة<sup>(٣)</sup> على بشرة الماء توقف فمها ، شفتها العليا تشرح البشرة إلى

---

( ٢ ) الجنزار : صدا النحل .

( ٣ ) هي البلطية بلغة بحيرة المنزلة .

عالمنا الهوائى ، وتشرب كمن يشرب منا من رقرق<sup>(٤)</sup> الحنفية ، وقد قلب رأسه وأسلم لها فمه .

الشبارة تفتح فمها وتقفله بين الماء والهواء ، لتقضم الماء المغمس بالهواء والضياء .

وهواء التنفس لدى الغلام يتوقف ، ليلتقط الفقاعات التى تستحدثها السمكة ، والبقلة التى تتولد وتتصاعد وتتفجر .

ويمر عم محمد النشار نجار السواقى فى عيادته الأسبوعية لسواقى الشطوط ، بعدته فى زمبيل وراء ظهره ، والمنشار فى اليد الأخرى يتطوح .

لقد أطاح الرجل الطيب ، بكل هذا العالم المرهف .

فص ملح ذاب .

### ( الطائرة الشراعية )

إلى أقرب دروة يخطو الغلام ، البهائم تجتر تحت أشجار التوت ، فى الركن القصى الدريس والتين وقش الرز .

وفرشات صفراء متأنية تحوم - طائرات شراعية نَشَلت منها الفكرة والنموذج - تناور وتناور لتحط .

يفرغ الغلام لها حياته ، وينسى نفسه ، حتى يمسكها .

وفى آخر ذيلها ، فى دبرها ، يغرز عودا من قش الرز أو التين ، تستطيل به الطائرة الشراعية الأصل .

يطلقها ويظل يرصدها وهى تعيد ضبط أجهزتها ، حسب ما استجد من موازين ومقاييس .

وأقصى متع الفتى ، أن يراها وهى تعافر من أجل إعادة الاتزان إلى حياتها .



## ( قشة البعير )

فى رابعة النهار ، يقابل الفتى خاله الأثير إليه ، ويحكى له عن رحلة الفجر ،  
فينكر عليه حديث الندى والحزون ، لأنها حشر وطبيعة صامئة لاتنطق ، وإن  
نطقت فأين وقف على لغتها ؟

قال الفتى : كم أحبها وأعاشرها وأتأملها وأنصت لها . إذن ، ما الغرابة فى أن  
تبادلنى شعورى وتسلمنى لسانها ؟ !

قال له خاله : جميل جدا ، طب والفراشة يا حلو ؟ لم لم يفتح الله على فراشتك  
المسكينة - وأنت تحطم بقشتك أمعاعها - بصيحة تصيحها فى وجهك ؟ لم لم  
تسمع صراخها واستغاثتها ؟ !

قال الغلام متلعثما ، وقد انزرد وجهه : لا ، لا أعرف ، لا أعرف .

قال له خاله : بل أنا العارف - لو كان شعرك عن عشق الطبيعة صادقا ، وهو  
بالفعل الصادق ، فأنت يا صاحبى منذ أن مددت يدك بالقشة إلى ذيل الفراشة  
الرقيقة تعبت بمصارينها ، ضاع منك مفتاح قلبها ولسانها ، ولم تعد أذنك قادرة  
على أن تلتقط منها شيئا ، الحلو يا ابن أخت لا يكمل ، ما رأيك ؟

وطأطأ الغلام رأسه ، ولم ينبس .

## أبوفصادة

( ١ )

جربا يوما أن تكون لهما ورشة نجارة بالقرية ، يديرها « هو » ، ومعرض بالمدينة المجاورة على البحر ، يديره أخوه الأصغر القيافة .

في الشتاء لايزيد على أن يرتدى فوق جلبابه الأبيض جاكته ، تعود أن يلقي بقروشه في جيبها الخارجى .

يدخل الورشة ، فيخلع الجاكته ، ويسلمها إلى المسمار خلف بنكه ، الذى يحل فيه مايعرض للورشة من عقد .

واكتشف أن قروشه تنقص كل يوم قرشا ، مما يبعث على الظن أن يد صغير طويلة ، تندس فى غفلة .

يد من فيهم ؟ وهو لايجب أن يظلم أحدا أو يتهم .

وكفى على الخبر ماجورا .

وتفتق ذهنه عن إلقاء بعض « الالينا » الحمراء فى جيبه بين القروش ، وهى من مواد اللون المجنونة عند الأسطرجى .

وبعد انتهاء اليوم ، ومن بعيد ، وقف يرقب الصبية وهم يشطفون أيديهم ، إلى أن رأى يد اللص الصغير تصبغ الماء .

واكتفى بقرصة أذن .

## ( ٢ )

« وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وفنا على وهن ، وفصاله في عامين ، أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروف ، وأتبع سبيل من أناب إلى ، ثم إلى مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

بخشوع يقرأها مترنما ، غائصا إلى اللؤلؤة من الصدفة ، يحلّى بها صدور الكلمات ، حتى إذا ما وصل إلى ..

« يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض ، يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير

يابنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وإنه عن المنكر ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرجا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك ، وأغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

بكى وأبكى المصلين من خلفه ، لا يستثنى منهم أحدا .

هى الآيات الأثرية ، يتلوها دون غيرها كلما أم الناس فى صلاة ، إذا غاب أخوه كبير مشايخ السنة ، حتى إن أحد الأنصار - وكان مسحوبا من لسانه - عاتبه يوما : هل قرأتك ليس فيه غير لقمان نبيا ؟

## ( ٣ )

باب الدار والسلم حرمهما على نفسه ، إلا عندما يصحبه ضيف بينهما كلفة . السلم والباب للنزول والخروج ، أما كيف يصعد ، فبحبل متدل من شبك الرواق الغريض ، يصعد بيديه وحدهما ، لا يستعمل رجله مع الحبل أبدا .

لقد اقتنى يوما نسناسا .



## ( ٤ )

لم يرتد في حياته إلا الجلباب الأبيض ، يحملُه الجاكّة في الشتاء ، ولم يحدث أن زدر سوارى جلبابه قط .

وفي كل وقت فراغه - ووقته كله بين الصلوات فراغ - يقف إلى بنك الحديد ، تأسيساً بنبي الله داود ، الذي ألان الله له الحديد ، يؤلف للبيت العتيق ، وللأحفاد من بيوت مبعثرة في القرية والمدينة ، عصارات للقصب ، وفتالات للشعرية ، إلى براجل ترسم الدائرة والبيضاوى بكل ما يريد الراسم من أبعاد في عرض البيضاوى وطوله ، وهذه هي العقدة ، وينادق صيد وقصافات تبغ ولفافات ، وصنع لنفسه مع حديدته مخرطة لاتستعصى عليها عاصية حديدية ، ولم تتخط أعماله عتبة الهواية .

وبعد دقائق يكون ثوبه الأبيض « الشاهق »<sup>(١)</sup> - كما تقول محب - قد النقط كالمغناطيس بقع الزيت ، وشظايا الحديد ، والشرر الشارد .

فقط عينان زرقاوان ، ترصدان تلوّث الأبيض في ثوبه الناصع ، بالترابى والفيرانى المزيّت بالأسود . هما عينا الأم العجوز ، تشوح بيديها اللتين تغسلان ، لاتزيد .

وهو غارق في ساعات التجلى ، في زن وفي قراءة القطط . هو بالقطع أمام معضلة من حديد ، فوق بنك الذى يتوسط الحوش الكبير المسقوف نصفه ، والمكشوف نصفه ، ودوام اللخلخة يفتح العصى العويص من الأبواب .

## ( ٥ )

أخوه الأصغر القيافة يتولى شؤون الأرض والفلاحين ، ويقوم بالصرف على البيت الكبير ، ويمسك بكل الدفاتر والأسرار .

أما داود فلم يكن يحمل من النقود إلا اللّم ، يعرفها ويرى الأيدى تتداولها . وكلما خرج يُعسُ الحياة ، انغرزت قدماه أكثر وبلا قصد ، في ملكوت الزهادة .

---

( ١ ) من شهيق التنفس ، أو شهوق الارتفاع ، ويقال في غير محب « لبيض شامى ، من الاشتها .

وجرته رجله المنحسرة إلى الجنينة الممتدة والمنطوية خلف البيت العتيق  
بساقيتها الحزينة ، يطيل النظر إلى سكانها من نبت وطيْر وحشَر ، حتى آدمناها .  
واستهواه أبو فصادة .

لم الطلوع والنزول ، وحشر الكل فى مكان واحد مقفل ، وأرض الله واسعة ؟  
وشده أبو فصادة من حديدته يتأمله ساعات لا يرمش .

صحا يوما فى الفجر الأول ، بفكرة كشك بسيط بأقصى الجنينة ، وحده مع  
الصيف والشتاء والنخل والنحل ، والجوافة والقصب وشواشى كيزان الذرة ،  
وأبى فصادة والقنفذ ، والدواب المارة من خلف كشكه عبر « المنسر » الكبير  
الذى يسرق ماءه من نشع الغيطان .

صومعة من خشب نباتى ، خارج حدود الطوب المطبوخ ، على مرأى من  
عصارة القصب على باب الأمارية ، تلك المقصورة التلقائية المصفورة من  
تعشيقات مربعات الغاب الكرومى الأبيض ، المكسو بكيزان اللوف الطويلة وزهور  
شتى المتسلقات ، حيث يستقبلون فى الصيف الضيف السمين الأثير .

وقام إلى أدواته ينجرو ويشق ويدق ، لم يتوقف إلا حين أنهى مهمته فى سحابة  
يوم ، ونقل إليه سريره السفرى وهدمته .

وانتبد صومعته ، يرى فيها قلوب المخلوقات ، قبل أن تجرى سحنها وألسنتها  
بما يملأ عليها خارجها .

ومن يومها والحبل المدلى من شبك الرواق سلم صعوده ، التوى وانحسر عن  
الأيدي ، وانطوى على نفسه .

وزاد زنة إلى نفسه ، وهو مع الناس ، وزادت هزة ساقه ، وطال ارتخاء تنده  
عينه ، ولم يعد يشرع عينيه إلى عينين كما كان يحب أن يشرع .

## ( ٦ )

لأول مرة يختلط الورق والقلم على بنك مع الحديد .  
قالت ورقة :

« وسمعت كلام عمنا أبى فصادة ، وبينت عشى معه بين أوراق الغاب العازفة

وفسائل النخل ، وتعمدت أن يطل الشباك الجرار على منسر<sup>(٢)</sup> القراميط<sup>(٣)</sup> الصعاليك ، كأقلط مايكون بيت على بحر ، وعلى ساقية عنطوطة المسكونة ليلا بالعفاريت ، لعل أخاوى منهم أحدا ، أو اطلب قريبا .

هذا الراقص اللولبى الذى أخرجنى ، وتسميه القرية علق الغاب من طول ملازمته إياه . فى بشائر الربيع ينط فجأة بين العيدان ، تنشق عنه الأرض ، وقد صحا فيه المهندس والفاعل معا فى بؤرة واحدة ، ليبنى بيته البيضاوى المبطن الساحر بين أباط الأوراق قريبا من الأرض .

قد يموت أبو فصادة أو لا يموت ، لا يهم ، المهم أن يحيا الطبيعة بالطول وبالعرض ، والحياة التى أمامه وحدها ، فقد ترك ما وراء الطبيعة للشملول النزيه الصخاب .

الشملول واضع طقوس العادات والأعراف الحادة والتقاليد ، والمحرمات والمقدسات ، التى تجمد وتثقل وتقيد وتعرقل . بيديه هو يغزلها ، وحول نفسه ينسجها مزهوا ، شرنقة ثم زنزانة تزهرق وتطارد ، بكلب الصيد الشرس المدرب المعروف باسم الضمير ، وتضيع الأعمار وتسقط الضحايا من أجل التحرر من قديم شاده هو ليقع فى جديد ، حريرى فحديدى ، وتحت أسماء ضخمة براقة ومعروفة .

أبوفصادة الفصيح عرف فولتها ، فلم يجد ولم يغادر ، بل عاشها بحذاقيرها ، ثم عاشها بلا قبل ولا بعد .

انتهى كلام الورقة ، التى ألقى بها إلى حديده ، داود الذى علم نفسه بعد مدرسة عمر الأولية ، وزودها بكل ماوصل إليه . كان نحلة يعرف كيف يقع على الرحيق ، دون إهدار جهد أو وقت .

---

( ٢ ) المنسر جماعة اللصوص : ويطلق على القناة الواسعة ، لأنها تسرق ماءها من نشع الحقول .

( ٣ ) القرموط والشل سمك نهري شائك ، ويعيش فى الترع والقنوات ، اسمر الجلد سميكه ولزجه ، يسلخ عند الطهى .



والورقة لم تحمل عنه همه ، بل زادت طينه بلة . والشئ الذى لم يقلع عنه ، ربما لأنه « الشرنقة الحريرية » ، صلاة الجماعة ، إلا أنه لم يعد يقرأ مقالة لقمان لابنه وهو يعظه ، أو ييكى وييكى ، فصوته فقد عذرية رنته وعفويتها .

لم يبق له غير الحديد ، بقادر على إعادة التوازن ، إلى إهاب هذا الشارد المتبتل ، والصعلوك الملتزم ، يعيده إلى عشه إلى جوار صديقه وصفيه وأستاذه أبى فصادة .

## ( ٧ )

ما كان حديثه إلى القلم ليختلف عن زنه إلى النفس أو صخبه مع الحديد ، قالت ورقة أخرى ملقاة ..

« جئت أكحلها فأعميتها ، أردت أن أختصر الخطى والإجراءات ، فعملت عملة أذن جحا معه ، ذهبت بالقصد والعنية إلى الأسطى أبى فصادة لأكون أقرب منه ، فإذا بى أتوارد كالدماء إلى أردا المزابل ، بدل أن أحل أرانى أعقد . عود القصب المعقل إذا ترك عطشانا .

أبو فصادة ببساطة يبني عشه المفخرة المعمارية ، لا من أجل العش فى ذاته كما فعلت ، ولكن من أجل أم فصادة وفصادة .  
من أجل البقاء الفصادى .

ثم تهجره العائلة الفصادية ، إلى مجهول لا يخرج عن الطبيعة ، وخميرة الغريزة الحية فيها ، تتزود منها من جديد ، أو تتبدد بين أحضانها ، لا يهم . المهم أنه فى الربيع الجديد يجتمع ذكر وأنثى على مشروع عش وذرية . إذن البيت التحفة ليس من أجل البيت ، والزواج ليس من أجل الزواج ، والحياة ليست من أجل الحياة .

لاشئ فى الحياة من أجل الشئ نفسه أبدا ، وليس من الحياة الاستدراج للدخول فى مثل هذه المعميات الدائرية العقيم .

« الحياة دقة ، وصل على النبى »

انتهت ورقة داود الثانية إلى معشر الحديد .

وقالت الورقة الثالثة ، ويبدو أن حديدہ ظل أحمر ملتهبا .

« في طلائع الربيع ، مع القش الطائر والريش ، والغصينات بمناقير العصافير واليمام ، ومع الطين الطائر في أيدي الزنابير ، مع الشقشقات والهديل والهددات الطائرة في قم الصباح .

مع النقط الخضراء التي تتيجس عنها بثور الأغصان والجدوع الجرداء ، وصديقي الذي انشقت عنه الأرض فجأة ذات صباح .

معها جميعا ومنها فيها .. تناهى إلى سمعى نداء خفى نفاذ ، ينتأ كالبرعم من أحشاء الظلام يوشوش .

لم ألق له بالا ، ولكنه يدق طبلة الأذن .

وخرجت إلى حكيمى اقتبس .

الدائب الذائب في عمله ، المستغرق إلى شوشته ، يا صفيى يا نجى ، ليس هنا بالمرّة . الاندماج الصوفى الكلى ، الذى يعترينى مع عضلات الحديد ، وبين لقمان وابنه .

وقعت مع هذه الوحدة في شر أعمالى .

ومن دروة الجلادى إلى جوارى ، خار فعل<sup>(٣)</sup> ، ومن بعيد طلبت جاموسة .

لم أكن أعطيت النداء من قبل أذنا .

واكتشفت أننى تجاوزت الأربعين .

وجدت المهندس المقاتل الفاعل لديه ما يستغرقه ، ودائما يستغرقه ما بين يديه ، لا أكثر ولا أقل ، لا لحوسة ولا فلفصة ، ولا معرفة لأنها النطفة الكامنة في منابت الحدس والتلقاء ، والبوصلة التى تترجرج لتتجه .

لا شيء اسمه ملل أو ضجر ، أو فتور أو عزوف ، لا قلق ولا أرق ، أن تحية وحسب ، أن تعيش ما تعرف ، بل تعيش وحسب .

( ٣ ) هو فعل الجاموس الذكر .

« إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، ولا يهلكنا إلا الدهر ، .  
انتهت الورقة التي استبقاها الحديد .

داود ولاشك ، ساخت منه روحه ، إلى أبي فصادة الدهرى .

## ( ٩ )

ودارت المراسيل والجوابات ، حتى عثروا له على واحدة من أقصى الأرض ،  
أبوها طيب ديين .

وبنى له أخوه الأصغر بيتا فى طريق المدينة ، على مرأى من محب ، ومسمع  
من أذان صلواتها .

يومها وجد آله مقشّفة يعلوها الصدا ، لم تستعمل قط إلا ماسورة صرف .  
وكانت هذه آخره العشرة مع أبي فصادة الدهرى .

## ( ١٠ )

لأول مرة فى حياته تحس راحة يده بوجود المال خارجها ، ويحس جييه  
بالإحباط إزاء قيمة المال وسطوته ، ولأول مرة يحس بوطأة الحياة الاجتماعية  
ودروبها المعقدة .

والحديد الذى هناك فى البيت العتيق ، على البنك وحوله ، يعاقر الصدا ..  
الحديد الأخرس الذى لا يلمع ويؤدى عملا إلا بين يديه . نسيه .

كم فعل الزواج به ، ومن أول يوم ، كأنما سافر إلى بلد أجنبى راطن . اشتدت  
غربته أمام غرابة الحياة من حوله .

## ( ١١ )

فى بداية الصيف أتى ابن أخت له فى عطلة الجامعة ، حاملا كتابا لفيلسوف  
ألمانى ، تصفحه داود وهو واقف ، وما أسرع ما نقرت عينه الخبيرة قول البطل  
لنفسه ، بعد أن فارق الشيخ الناسك فى الغابة : « إنه لأمر مستغرب . ألمّا يسمع  
هذا الشيخ فى غايه أن الإله قد مات ، ؟ !



هزت العبارة بصيالات شعره ، ولم يخفف عنه قول هامش المترجم : « وسأى إله يقول بموته ، وأى إله يتجه هذا الفيلسوف إلى اكتشافه فى سر الإنسان » .

جاءته العبارة على الوجيعة .

وأدرك داود هوية ابن أخته . وأسرها فى نفسه .

## ( ١٢ )

أصبح له مطبخ يومى ، لا ينفذ حتى ينصب ، مطبخ يزلط المال زلطا وجد مرة صوته يطلب به المزيد من المال من أخيه ، ولكن ما يفعل والصر يهرب منه دائما ؟ لو كان الخجل رجلا لقتلته .

فى الأصل هدته قدماءه إلى مجلسه القديم من قهوة يوسف دون أن يعى وجنح الحديث بالرغم إلى الحرب وويلات الأسعار ، وتعذر استيراد عتاد النجار والمنطقة كلها نجارون . طهق الخلق ، وضجت البيوت ، وطققت السقوف

تذكر وليفه القديم ونجيه . تذكر داود حديده . خجل . كل هذه القطيعة ؟

كان الرضا كله حين تتحول قطعة الحديد الخردة إلى آلة تدار وتدير ، ألا تتحرك بالطاقة ، وما الآدمى نفسه إلا آلة تتحرك بالطاقة ، وخيئة البيت المنصوب تضيق وتخنق .

مضى يا داود عصر الهواية وقرض الشعر والصرمحة والحبل والنسناس إلى عصر النفقة الجارية والمسئولية .

قم فز وانصب بنك الحديد هنا فى منور بيتك الجديد .. كم انفقت على الحديد ؟ واليوم أرنا كيف يقوم الحديد عنك بالنفقة إن كان حديدا .

ونصب بنك ، وإلى سوق النجارة وبلا خجل قديم ، ذهب يرى ويسمع ، مسمار التركيب القلاووظ والكستير المشط ، والبقية ، وليفاجئهم بالمكبس الذى يغنى عن المسمار . وبعد يوم واحد خرج الإنتاج وينصف الثمن .

أصبح للمكان حس ، والبيت من فوق عرف الاتزان والنكته والمفارقة ، واستمع الشارع إلى أطراف الضحكة .

### ( ١٣ )

إذا ضحكوا غنوا وتفلسفوا .

وإذا ضحكوا قالوا : اللهم اجعله خيرا .

هرش داود مؤخرة رأسه ، حيث مرقد الحسابات .

قالت له نفسه الأمانة ، وهي تستقر به في الصلاة :

- ألا ترى معي يا عزيزي داود أن فرط التوازن يفقد التوازن ، التوازن ، كأي

فرط في الحياة ؟

قال يقطعها : يعني إيه ؟

قالت متجاهلة إياه وفي تودة .

- ثم يدعو ويلح في طلب طرف جديد يحدث التوازن ، فيخل به منذ كان عنصرا

غريبا .

- وماذا تريد إن شاء الله ؟

ردت وهي تبوس يدها وشا وظهرا .

- أنا ؟ أحمدته تعالى جل شأنه على آله ونعمه .

وفي خشوع السجود الطويل الصامت ، ومن غرفة الكرار في مؤخرة رأسه -

والصلاة أعز مكان لإجراء الحسابات - خرج ما كان خافيا يزحف .. قالت :

- الإناء يا فالح تدشدهش . الناموسة دخلت تجويف الدماغ . لا رجعة . لا

فكاك .

ولما لم يرد ، قالت متمادية :

- مشكلتك اليوم يا هذا ، لا كيف تعود إلى ماكنته ، بل كيف تنسحب مما أنت

فيه . موقف الرياء العصيب ، يتعذر اليوم عليك أن تتخلف عن صلاة الجماعة ،

ولا عن النيابة في الإمامة ، مع الوضوء الذي لم يعد ذا بال ، وهذا جزاؤك

الأوفى .

وأفاق فجأة إلى صوت أخيه الشيخ ، يرتل في القيام الثاني :

« يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السموات

أو في الأرض ، يأت بها الله » .

### ( ١٤ )

وكل ليلة ، بعد أن يسلم جنبه للرقاد ، يهرول في سماء محب عريانا ملطا كما

ولدتہ أمہ ، وقدماء تمسان الأسطح ، وعند رأس المئذنة يتلکأ ، ونظرات العیر  
من تحت سهام مسددة .



## زفاف الملائكة

( ١ )

كانت تقول لبناتها وهي تحرضهن على حمل عشائه إليه في مقره بالجامع :  
الى يودى الأكل دهو يا بنات ، الملائكة حتزفه .

هو الشيخ حسن ، أما اللقب ، فواحد رسمى ولد به هو منسى ، وآخر عوفى  
جرت به الألسنة هو ستت .

ولعل هذه الثنائية بشير أو نذير ، الله وحده أعلم بما تحمل بذرته .

كان يسكن وحيدا حجرة بلا شباك ، وباب يفتح على مؤخرة صحن الجامع  
العريق ، وتدين بوجودها كله للميضة من خلقها ، وتعود الصف الأخير من صلاة  
الجمعة أن يصل إلى بابه بالرغم من اتساع الصحن ، فجامع النعمان - وهو  
اسمه - قديم عريق . قابل الرحالة الأشهر ابن بطوطة صاحبه النعمان ، وتحدث  
معه في كتابه .

لم يكن شيخنا يكسب عيشا ، لأنه لم يكن يملك كُتّابا يحفظ فيه إصبيه  
القرآن ، والقرآن مع ضفر الخوص صنعة العميان في القرية ، ويمحب أعميان  
أخران يديران كتابها .

من أجل هذا عاش أعمانا في أعين القرية ، ودأبت الأم قبيل العشاء في إغراء بناتها بذلك الزفاف الملائكى .

قال الراوى : أما أنا فكنت الحريص على الاستجابة ، ولم تكن بالطبع بدافع الزفاف ، وكأن الملائكة فرقة صداحة ، بل لرصد مبلغ ما وصلت إليه صبغة جلاباب الشيخ في عالم الألوان المغرى ، جلاباب الذى يتخذ من تراكمات البطم صبغة .

قال الراوى : وأرسلنى أبى إلى الشيخ حسن منسى الحنبلى الحرفى المدقق ، أحفظ على يديه القرآن ، وكنت وحدى معه .

منذ الوهلة الأولى ، اكتشفت أن كل آدمى نائم مشخر على كنز يجهله ، معمل كامل لما عرفت بعد بالصوتيات ، أيل للصدأ والفساد إن لم يبدأ التشغيل .

منذ بداية سورة البقرة : « والذين آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك » ، يستتفر الشيخ معمل الصوتيات فيك بأدواته كلها ، يستنهضها ويعلمها بحالة الطوارئ القصوى ، وكأنما قامت القيامة ، فأنت في « أنزل » فوق تل الهمة المضمومة ، وفجأة فوق غنة النون ، ومع شلال الزاى المكسورة تسقط فجأة ، وقد فتحت فمك بالعرض مع ضغطك على أسنانك بحدة .

تضاريس صوتية تتدفق وتنحدر ، وتربط في تشكيل صوتى محكم ، وصادر عنك أنت فجأة لأول مرة في حياتك .

كل حرف له بيته الذى يخرج منه ، من داخل الفم ، فى الحلق واللهاة ، ث اللسان والشففتين والأسنان بكل درجات دوران الفك ، الحرف كائن مستقل ل بصمة ، والكلمة مجموع بصمات حروفها ، والكلمة تدفع الكلمة فى تشكيل الجملة ، التى يتألب فيها أنغام المعنى الكلى .

إن أصوات اللغة معزوفات ، يخنقها اللحن والجهل والتنشيز والخروج عز المقام .

بالطبع لم يأت الاكتشاف باللامح ، بل توجهت البوصلة إليه حادة وحاسمة

يقول الراوى : إلى أن وصل بنا الدرس إلى لفظ بنى إسرائيل الذى يما العصور ، وذلك التيه الكلموتى حول أوصاف البقرة ولونها ولامحها التى يضربون بها الميت فيصحو .

إلى أن وصل بى الحفظ إلى قول اليهود : « إن البقر تشابه علينا » ، يومه

يستوقفنى شيخنا وقد قلب الاستياء العظيم سحنته ، ليردها إلى مقطعة هكذا :  
« إن البقرة شابه علينا » .

وافتح عينى فى سعة الفئجان على رسم المصحف ، لأرانى كما قرأت « إن  
البقر تشابه علينا » .

وانحسرت أمام هذا الأعمى إلى عالم الصمت ، مدركا بغموض ، أن الاهتمام  
البالغ والعظيم والمفرط بالسطح البرانى ، يكون عادة من حساب المعنى  
الجوانى ، ويا خسارة الحلو الذى لا يكمل .

وحملتها إلى أبى ، مصرا على ألا أعود إليه ، وبالتالي أن أنأى عن طريق  
الأزهر .

## ( ٢ )

دائرة كبيرة يتقرفص فى مركزها شيخنا ست . يد عكازته بيده ، وهى بعقبها  
من فوق كتفه تلقى بظلها الغليظ متعرجا بتضاريس ظهره ، ومهتزا باهتزازة الشيخ  
التي تحدثها أذنه ، وهى تنصت إلى دبة النملة داخل البيوت وفى الشوارع  
المفضية إلى هذا الميدان الذى تشرف عليه مئذنة النعمان .

كان يحب أن يتوسط هذا الميدان ، أمام دكانة مطاوع ، الذى يواصل القراءة  
من مصحفه العتيق ، كساقية الرز لا يتوقف ، من بعد صلاة الفجر إلى أذان  
العشاء ، يسمعه كل من عبر المكان ، فلا يلقي عليه السلام ، حتى لا يقطع عليه  
قراءته . أما هو فلم يكن على الأرجح يواصل القراءة إلا لكيلا يسمع أصوات  
الخلق ، ولم يكن يهمه أن يبيع القليل أو الكثير ، ولكن الدكان كان له البيت والعمل  
والمحيا والممات .

فى الصيف يلوذ شيخنا فى مكانه الأثير بظل المئذنة ، يزحف معه ويتزحزح ،  
وكانه جزء منها ، وكان يدرك حدود هذا الظل تماما ، حتى إن جزءا من ثوبه لو  
تعرض للشمس ، أسرع يطويه ويضعه إلى ملكوت الظل .

وفى الشتاء يتقرفص على بعد شبر من حدود الظل ، يعتمد أن يقيسه أول ما  
يجلس ، ويحتفظ به بعدا فاصلا يحركه ويزحزحه ، لا يقوم من هذا المقام  
الشمسى إلا إذا وصل به الزحف إلى حدود ظل الجامع نفسه ، يظل فى مكمنه



يتضاغل وينضغط ، حتى يفحصه الظلان من خلف ومن قدام . عندها فقط ، حينما لاتبقى شجرة من ضوء ، يقوم :

كان يولى أذنا لقرآن مطاوع ، وصفحة وجهه شاشة تتقلص من مد مبتور ، أو غنة لم تشبع ، أو إدغام مخلخل ، وأذنا للبيوت والشوارع ، وقرون استشعاره تدور من حوله كأبى رياح .

### ( ٣ )

كنا نتجمع على ضفة الدائرة الضوئية التى يؤلف شيخنا مركزها ، واحدا بعد واحد ، وكنا الحريصين على ألا يقع ظل أحدنا عليه أو على مقربة منه .

وكلما وفد وافد جديد ، وهو الحريص على ألا يحدث صوتا ، اعتدل رأسه يواجه القادم ، وازدادت أصابعه ضغطا على يد عكازته ، حتى إذا ما اكتمل العقد ، يكون الرأس قد اعتدل مع ميلان ناحية المنذنة فى مواجهة ثلاثة أرباع الدائرة المحيطة . يد تقبض بقوة على ذيل الجلباب الملموم ، والأخرى من حديد على يد العكازة .

وأذنه تتحرك بالنوايا فى الصدور .

تثبت الصورة عند محيط الدائرة وفى المركز .

يحذر شديد يتحرك طرف عصا إلى أعلى ، ويحذر أشد يتدلى من الطرف خيط تلقى به فى الفضاء الرصاصية التى تغطس بالصنارة فى الماء ، كانت صنارة صيد .

وبسرعة فائقة ، وقبل أن توصل قرون الاستشعار الرسالة ، تمرق الصنارة فى سماء الساحة منقضة على طاقة هذا القرموط الغليظ تصيدها .

ويهبج الوحش الأعمى ، كالمقلاع ينقذف ، والعكازة تصنع فى كل المستويات دوائر تتسع كلما اكتملت ، وأقدام الوحش تتحرك سبعات ، ولا تلبث البيوت وهى تحس بهوجة الانتفاضة ، أن تجمع بسرعة ولهوجة متعلقاتها ، وتغلق عليها بابها الذى لا يعرف الانغلاق بنهار .

كان لحلا هائجا قطع السلب ، وحصانا جامحا يشب ويرفس معا .

## ( ٤ )

كان الشيخ منسى ، من طول ما كانت أجهزته الداخلية الدقيقة ، تخرج منه وتوغل فى الخروج للرصد والمراقبة ، كانت لدى العودة تتلكأ مرات ، وتلكك مرة .

واعتادت بعدها أن تخرج منه متسربة أو متسحبة ، ثم تعود دون أن تُلحظ ، ثم أصبح من حقها أن تخرج فى الوقت الذى تحدده هى ، أصبح لها إرادتها وتصرفها الشخصى .

وكلما دخل غرفته ، قامت هى من الفور بإغلاق الباب رزعا عليهما ، ولا يكاد يفعل حتى يسمع من بالجامع العتاب والنقاش والصياح ، والطحن والضراب .

وكلما حمل إليه أحد طعاما ، صاح فيه : يا عالم خلوا فى عينكم نظر ، أنا موش لوحدى ، احنا قبيلة ، زودوا العيار شوية ، زودوا العيار يا هوه .

ثم لم تعد الغرفة تتسع ، ضاقت فخرج بهم إلى الساحة ، وبذل الكلام - والظاهر أن عفاريته التى تركبه ، حرمة عليه ، لأنه فضايح وجرس - انتهج نهجا آخر .

تبدأ الجلسة الخاصة جدا بالهمس ، الذى تنقذف منه شظية من كلمة هنا وشظية هناك ، وفجأة يتخشب ويرفع عصاه ، وينهال على ظهره هو ضربا قاسيا مؤلما ، دون أن تدمع عين ، أو تقلت أمة .

من يومها والصبية يحدقون ، وقد شلت صنانيبرهم . انتقلوا من مواقع الأداء إلى دكك الفرجة .

## ( ٥ )

قال الراوى : وأنهيت إلى سمع الجامعة - وكان مرهفا أيام أن كنت بها طالبا - خبر الشيخ حسن منسى .

أفتى علم النفس بأنها الشيزوفرانيا ، والانفصام الحاد إلى : « منسى وستت » ، نجمت عن وحدة محكمة ، وسفر وإيغال داخل مرافىء الذات ، انغلاق محكم ، فانغلاق تام أو انشطار .

إلا أن داود نجى الحديد ونجى محب ، خطف رجله وأطل فى غرفة الشيخ ،  
ووليمة الضرب بالخارج حافلة .

قال : إنه الأكلان يا مبارك ، استفحل واستوطن .

## ( ٦ )

فى أصيل يوم من شتاء قارس ، أوقد الشيخ الضرير موقده ، ونصب شايه ،  
ويبدو وشياطينه أدرى ، أن النار لضمت فى عود من قش الرز الذى جلبه فراشا  
يدفىء على عادة القرية .

والراجع أن النار وصلت إلى عود ، ومدت إلى عيدان حتى توهجت ، وعينها  
على اللقمة الدهنية الغليظة ، ولعله وقتها كان مستغرقا فى حديث نارى مع  
شياطينه وهم من نار ، فلم يحس بالنار ، وهى تغادر جلبابه المزيث ، إلى منابع  
الزيت والشحم منه .

وإلى الشارع من الجامع ، اندفعت كتلة لهب كالشهاب ، وفى مركز الساحة  
تماما ، حيث كان يحلوه أن يتقرفص ، ارتكزت بعد ذبذبة ، كما تفعل الكرة قبل  
أن تستقر فى الحفرة ، ثم ارتمت خامدة .



## أبو هبط

اليوم مات أبو هبط ، توقف عن أن يظهر كلما خطر على البال ، ودفنه أخوه الأصغر مع أبيه في مقبرته ، وهو يعلم ما بينهما ، ويعلم أكثر أن ما بينهما يستعصى على التصفية أو النسيان .

هل ألقى عليه السلام أول ما أدخله التربي عليه ، وقد افترق عالماهما من سنين ؟ لا أظن ، لأن السلام في عرف الابن أبي هبط ، على مبتدع يقدر الأولياء وكراماتهم ، ويسعى إلى الصلاة في المساجد ذات الضرائع ، على أمل أن يكون الولي وسيطه في حساب القبر ، والشفيع في حساب يوم الحساب ، وهو دس أنف فيما يخص الذات الوجدانية ، وشرك واضح فاضح يحرم معه السلام .

هما قطبان يتنافران : مبتدع يموت ويعيش في الخرافات ، وسني لا يفعل إلا ما فعل الرسول بالحرف ، حتى الصلاة بالنعال في المسجد إحياء لسنته ، بلا زيادة ولو في وزن واحدة من آلاف الأحياء التي تقف متصلة على سن إبرة ، لأنها - على حد قول الحديث - بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، مع مهارة يحسدون عليها في قيادة إيقاع الحياة ذاتها والزمن ، طبقا للنوثة التي أحكمتها الشريعة ، وليس العكس ، وإلا دخلنا في دائرة البدعة النارية .

المهم أن ما وراء هذه العقيدة من حياة عند أبي هبط ، بين أبيه المبتدع الأعظم ، وخاله السني المتفقه في علوم الحديث والقرآن ، بحر لا ساحل له .

الخلاصة أن أبا هبط لم يلق أبداً على أبيه السلام ، بل أولاه ظهره فى غير مبالاة الشهيرة ، مع هز كتف أو كتفين حسب الحالة .

والأب بالتأكيد لو افترضنا أنه تحدث معه فى القبر ، لناداه بـ « البغل » وكم ود فى حياته لو يستبدل « البغل » باسمه فى شهادة الميلاد ، لولا تكاليف التجديد ، ولولا أن أخاه الذى يصغره - والذى عليه الحمل كله فى أمور المعاش - نبهه إلى أن التغيير يجعل منه هو البغل ، وليس الابن . ( البغل فلان الفلانى ) . لولا هذا ما أقلع ولو تكلف .

لاشك فى أنه الصمت فى هذه الزنزانة المطبقة عليهما إلى يوم يبعثان ، والصمت صيام رهيب ، وتعذيب لهما معا ، العاقل بالباطل ، فى هذه الأبدية الدائرية اللانهائية المطبقة ، مع غض الطرف عن القانون المعروف « لاتزروا زرة وزر أخرى » . ولعل بصيص الأمل أن يخصم عذاب القبر بالصمت ، من حساب يوم الحساب ، إن كانت اللوائح تسمح .

بل لعل بصيص الأمل الأمل ، وأبوهبط بلا مبالاة القريب جداً من الاستهبال أحيانا ، والاستعباط أحيائين ، لعله يُقنع الملكين منكراً ونكير ، وهما يحاسبانه فى القبر ، ودفتر أعماله مسند إلى المرزبة ، أن كل ما ارتكب فى حياته من تهور وشطط ، وأتى من حماقات وأثام غليظة باستهبال ، حتى إنها لتندرج تحت طائلة اللطم ، كله مصدره والمستول الأوحده عنه ، هو هذا الأب القابع إلى جانبه ، هو الذى دفعه غصبا وقسرا ، بحكم حركة رد الفعل القسرية ، وبشهادة حمل بعير من جريد النخل الأخضر ، نسرته عليه وهو نائم ، وكأن عمتنا النخلة - والحديث النبوى يقول : أكرموا عماتكم النخل - لكان عمتنا المسكينة ، لم تكن تُرضع فساتلها وتربيتها إلا لحساب هذا العمل الوحشى ، ويكفيها عذابا ، أنها أول من يسمع جريرة ما يصنع جريد أولادها هى .

إذا تحمل الأب بالفعل المسئولية وحده ، وهو ترميم جزئى جداً فى جسم هذا الفساد المستشري ، وحمل عن بغله بالفعل جزاء وفاقا ، كل ما أسنده إليه بأعماله هو زورا ، وما دس عليه فى لوحه ..

إن حدث ، ربما يأتى دور بصيصه هو الآخر ، إذ ربما كان على الأب بدوره بعد أن يحمل ما ارتكبت يداه ، أن ينقب عن مسئوله هو ، إلى أن تصل الرعية إلى الفاعل الأصلي ، ليقر ويعترف بوسائله الجهنمية وأدوات تعذيبه ، بالتجنى على كل هذا الخلق جيلا بعد جيل ، فى هذه اللعبة البراقة جدا والقذرة ، التى نصبت هنا وهناك .

ثمة خلل جوهري فى النظام ذاته ، والدلائل كلها تؤكد أن ما يسمى بالتطبيق هو الأسبق ، وأن النظرية اجتهاد نظرى خرج مما نطلق عليه بالتطبيق العملى ، ولا أقول كثيرا ما يَحْرِم ، بل لابد أن يَحْرِم .  
بقيت الأم التى ذهبت إزبا إربا بلا دية .

## ( ١ )

صراخ ملتاغ هلع طويل ، منتزع من قعور الأرجل ، يشق قلب الليل ، ليخلع القلوب من توابيت نومها .

تستيقظ البيوت وتضىء ، وهى تلعن هذا الكابوس الليلى ، الذى يحدثه وحش آدمى ممتحجر القلب ، وأب .

والبيوت تتصايح ، بيت يفضى إلى بيت ، إلى أقصى الطرف القبلى ، لتسرع إلى إيقاظ العمة ، تلفع ملاءتها وتمضى قبل أن يغطس الولد بين يدي أخيها المستبد المستفرد بابنه كل ليلة ، يفرج الخلق بعد منتصف الليل وباسم التربية .

هذا الجانب من محب يعلم أن هذه العمة النائية ، هى المسموح لها وحدها بالشفاعة ، تلك المحرمة على العم المقيم فى الشقة الملاصقة لهذه المجزرة الليلية .

صار الكابوس الثقيل مشكلة هذا الجانب القبلى من محب .. وصار فيه الآباء كلما تحدثوا مع هذا الأب فى هدأة النهار ، يزداد ضراوة مع ابنه ، الأمر الذى جعلهم يقلعون ، وجعلهم أكثر رقة وحنانا فى معاملة أبنائهم ، أما الأمهات فقد تعودن أن يخوفن أبنائهن من بعيد ، بالهلع الليلى الذى يحدثه هذا الأب ، ربما لأنه عين من عيون أعيان محب ، وخطيب مسجدها إن غاب الخطيب ، وصانع كوابيس ليلها .



إذا خطر على بالك تلقائيا من غير إرادة منك ، وجدته أمامك ، « هابطا »<sup>(١)</sup> عليك فى هيئة ضبابية لا تلبث أن تنقشع ، لينفتح فمه بالورب من جهة اليمين ، مع استدارة فى حجم ذيل الجزيرة قبيل أقصى الزاوية ، ليميل الرأس إلى الشمال .

وإن جمعتكما طبلية طعام ، فسوف تجذبك ملعقة رزه المملأى وهى تلقى داخل فمه المفتوح على مصراعيه ، وأحيانا ما تسمع من مفاصل الفكين طقطقة ، ومع الملعقة يرتفع رأسه كمن يشرب من قلة ماؤها ضحل ، وهو يزرع عينه ، ثم تسمع للملعقة ارتطاما بالأسنان .

وعندما يزور الأسرة الأستاذ حمدى ، قرييهم المسن ، وراعيهم الحكيم الذى يعيش فى القاهرة ، يطلبه هو الابن الأكبر ، ليطمئن على مستقبل الأسرة .

يتحدث معه ، فيراه العاقل المتزن المتحدث على مهل ، وهو يضرب برمادية عينه المشربة بالزرقة إلى السماء فى لون عينه ، مالم تدخل قطرة ، وذيلها المتعالى المعقوف من طرفه ، يتلاعب من فوقها كعصا الراقص .

ورغبة خارقة جارفة لاتقاوم ، أن يمسك بيد تلك العصا ، ويمسكها محكما .

يجن جنونها ، يرفعها يهزها بعنف ، تخمش تخريش ، يدوى صوتها ، أنيابها مخالبا شواربها . لا قوة تثنيه .

عسله وسمه القط والثعبان .

ينسى الدنيا والحكيم وإحباطه ، والحمص الذى اشتراه فى حياته بكل ملهم يصل إليه ، منذ كان كما قالوا له ، يصيب بالذكاء والحضور .

واعتماد بعدها الزوار من المدينة ، أن يستدعوه ليروا مشهده مع القطاط .

وهذه هى بطاقة أبى هبط الشخصية .

---

( ١ ) لعل اسمه « أبوهبط » . من هنا جاء .

### ( ٣ )

سهرة للصباح كل ليلة ، عند إحدى أختيه الشقيقتين أو عنده هو بالتناوب ، يشربون الشاي بالدار صينى ، وهم يكيون وينعسون ، ليتشهد كل منهم كلما نبه . ينام اثنان معا أثناء حديث الثالث المعاد والمعاد ، فى أسطوانة معلقة ومشروخة إلى ما بعد منتصف الليل ، ويتناوبون .

ثم نصف الساعة يتنادون للقيام ، والمنادى ينقطع منه النداء منسحبا إلى النوم ، ليلقف النداء من عليه الدور .

هذا التناوب الدقيق ، فلا يصحو اثنان معا أبدا ! ، أغلب الظن أنه وحده الجامع لهذه السهرات .

أما ثالثهما فهو الحاج سيد ، زوج أختهما ، البقال الذى يقوده حماره دائما وهو نائم لايقع ، لأنه طوع له وآلان كل أوضاع النوم .

المهم أنهم يقومون ، لأنه لابد لهم أن يقوموا ، وعن طريق الدكان يعودان بعد لفة ، يختبر الأكبر بنفسه الأقفال بالشد ، وبابى المخزن والسطح بالدفع مرات ومرات ، ثم يمضيان .

والأصغر الحانى على عائلته الملمومة حوله ، يصعد إلى شقته رأسا . أما هذا الذى أسندت إليه العناية مهمة التأديب والتشذيب ، فأمامه طقوس وقرايين يؤديها ، ومن غيرها لا يزوره النوم .

لا يصعد مع أخيه السلم المفضى إلى شقتيهما ، بل يتجاوزه إلى داخل الدور الأرضى حيث الحياة اليومية ، إلى باب الجنينة يشد ترباسه ، ويخرج إلى نخلة بعينها ، حولها فسائلها تضمها وترعاها كالفرخة وكناكيتها .

من فسيلة ينتقى جريدة خضراء صماء مترعة ، لتكون موجهة ، ينزع عنها سلاءها وخصوصها ، فى الهواء يلبلبها ، وعن صوتها المكتوم يرضى عائدا .

إلى سرير ابنه الكبير ، أول من امتك عليه من سلطة حقه مطلقة ، الابن الذى ارتكب مالا يغتفر ، أن جاء الأول من العنقود .

عنه يرفع الناموسية ، يلفها جيدا ويبعدها تماما ، ثم يتخذ وضعه من جثة ابنه النائم مع الملائكة .

ييسمل ، دون أن يخطر على باله قط أن يكبر ، ثم يتوكل ويرفع الجريدة  
وينزل ، يرفع وينزل كيفما اتفق .  
وبشغف من يقيم الحد .

تنزل الأولى ، فينهض النائم الصغير بنصفه الأعلى متطلعا . تنزل الثانية ،  
فينفتح فم كباب الفرن ، ومن فوقه عينان بلون الدم ، مستخبرا ، وكل ضباب  
الفرع يتنادى يتجمع يتكثف بلا صوت ، غائبا مخدرا لا يزال . تنزل الثالثة ،  
فترتفع يد درعا لوجهه والرأس مستجيرا . والرابعة حنجرة لا تعي إلا مجهولا ،  
تجأر . والخامسة والسادسة والسابعة ، من قعور رجله ينطلق الصوت سالكا يهز  
ضمير الليل .

#### ( ٤ )

كان الجد يدلل ابنه ، ويفرط في تدليله ، كان لكلمته صدى مسموع ، كما كانت  
تروى أخواته العمات .

مات أبوه وهو في الثامنة عشرة ، ولم تكن قدمه قد تعفرت قط في مسالك حياة  
الناس ، ولم تكن أذنه تسمع إلا صوته .

فجأة وجد نفسه مسئولا رسميا عن أختين شقيقتين اثيرتين ، وآخرين  
فقيرتين لم يعطهما يوما ما في الحياة ريقا حلوا .

وأخ واحد يصغره ، عرك الحياة ، ومارس السوق ، وتعامل مع الناس ، فخرج  
عطوفا سليسا ، وأفهم للناس والحياة . أخ أدار العجلة أضبط وأسرع مما كانت ،  
فانطلقت العربة .

أخ هو شريكه الأبدى في التجارة والأرض والأخوات . عليه كل العمل والسفر  
والإنجاز ، ولهذا الذي يركب رأسه ، الشخط في أخيه بخاصة ، والنظر والأمر  
والنهي ، والاسم لطوبة والفعل لأمشير .

ويوم يغيب الأصغر في مراكز الدقهلية ، وراء تقاوى البرسيم والرز الشعير  
والغلة للأرض والتجارة ، يصوم البيت الكبير ، العائلتان بالأولاد ، لا يأكلون إلا ما  
يجود به الدكان أو الفلاح أو أى مجان ، فمن المتعذر على يده أن تخرج أو تعطى  
لم يكن في المجزى منذ احتفاره إلا تيار واحد لا يعرف إلا اتجاهها واحدا ، أن  
يأخذ .



لقد أكدت المسئولية المبكرة ، فجاجة الذاتية ، واتجاه النمو عنده .

## ( ٥ )

بالضحى تجتاز محبا زفة يتوسطها حمار ، يركبه فتانا بالمقلوب ، وقد حُشى داخل زكية على اللحم ، فتَح فيها ثلاث فتحات للرأس والذراعين ، والأطفال من حوله زائطون يزفون : بالعين .. يا الله السلامة ، يا بو الريش .. إن شا الله تعيش .

والزفة لأن أحدهم شكَا إلى الأب أن ابنه المزفوف ، كان يلعب الكرة الميس<sup>(٢)</sup> مع أترابه ، فكسرت الكرة الشراب زجاجا مكسورا يأمل أن يجدده ، ولكن على من ؟ ومحِب تعلم أن الزفة ليست للتأديب ، بقدر ما هي للزجاج المزعوم عوضا وترضية .

والزفة دائما تنتهى إليه ، يحرص على أن يكون فى انتظار عودتها ، ليأخذ حقه هو ، بعد حقهم : الفلَّكة<sup>(٣)</sup> المعدة للقدمين ، حتى ليتعذر الوقوف ، ثم الوقوف الجبرى لزوم الشلاليت والأقلام والقفوات ، التى تملأ وتمعجن بالزغد والموشحات .

## ( ٦ )

لم يحتمل جسدها القوى ما يدور .

ماتت .

ماتت كمدا .

طقت ماتت .

---

( ٢ ) هو قلب الطوب القائم هدفا للكرة الشراب من الفريقين . وتسمى محب اللعبة « أول خراء » .

( ٣ ) جريدة يربط من طرفيها حبل ، يدخل إلى ساقى المعاقب ، وتلف الجريدة حتى يحكم الحبل وثاق الساقين ويثبت القدمان فى الوضع الأمثل للضرب .

أمة التي ذهبت فطيسا بلا دية .

يزعق طائرهما فوق شواهد القبور ، أن اسقوني اسقوني .. ولا من سقا .

## ( ٧ )

كان المرحوم يتلك للمرحوم ، والبلاغات التي كانت تصل ضده ، لم يكن يتحرى أحداثها ، يا معجل ما يأخذ بالشبهة . ولما كان السوط نازلا لا يتوقف ، بالحق وبالباطل ، فقد أكل البغل له قلب ذيب ، وأقدم على الهرب من الدكان محبسه اللعين ، وأدمن الهرب .

يهرب إلى أتراه وكان يكبرهم ، إلى حيث تلبى القدم نداء الأرض . ينضم لمجرد إثبات الاسم ، ليتركهم فترة ، ثم يعود وفي يده فأر سيسى أمسكه من سوسة قفاه ، تفوح منه رائحة الجاز<sup>(٤)</sup> الفاقعة ، وهو الخبير الحانق في معرفة مسالك الفيران وأوكارها ، وفي سرعة صيدها ، السيسى الصغير والثعبان ، إلا أن السيسى يستهويه أكثر لفداحة ما يأتى من الأعيب تخلع قلوب الكبار . يعود بالسيسى وقد غمره بالجاز ، من أين أتى بالجاز ؟ لا أحد يدري ، والكبريت باليد الأخرى .

- يا بوهبط حرام ، يا ويلك من عذاب القبر ، دى المرزبة حنيطتك عجة ، هو مين ؟ لقد تربى على الغالى من مرازب أبية .

يضمرم فى فأره النار ويطلقه ، فيدخل من أقرب خرق يصادفه ، إن كنا فى الغيط ، إلى خص أو حزمة حطب ، وإن كنا فى محب يدخل بيتا أو عشا ، لا يهدأ له بال حتى يرى النار تندلع . حينئذ يسرعون بتنبيه الكبار ، تخلصا من التهمة .

## ( ٨ )

وعتلة القسوة على طول المدى تحفر فيه وتقوض وتعربد ، لم تدع بالداخل جدارا قائما ، كل محتويات دماغه بقايا وأنقاض ، ساحة واحدة اختلط فيها الحابل بالنابل ، تتعاش فيها الأضداد بسلام وتلقائية واستعباط .

---

( ٤ ) هو الكيروسين . والجاز هو الغاز

دخل المعهد الدينى لأنه بالمجان ، ثم دخل الجيش ، وكان التجنيد للعائلات سبة ومهانة ، لأنها تعجز أو تبخل عن شراء الذات بعشرين جنيها .

واندفع الى أنصار السنة المحمدية حيث أخواله عامدا ، للغلوفى الهرب من أبيه أعدى أعدائها ، ومواجهته بالأنصار .

وأيام التهجير الكبير من البُلط<sup>(٥)</sup> فى غارات الألمان ، أقدم بنشاط وموالاة على الأذان الشرعى فى الجامع ، والمئذنة تطل على سطح حبيته المهجرة ، ليبلغها صوته ورسالته ، ويده تشير وهو يؤذن .

## ( ٩ )

بعد العودة من آخر زفة صباحية بالمقلوب على الحمار والهندام الزكية ، بعد أن صارت الزفة تستهويه هو وترفه عنه ، وفى مرحلة التشليت بالذات بعد العودة وفى حُمَيَّاه ، مد الفتى يده - من باب العبث وإثبات المهارة والقدرة - فلهف رجل أبيه الراكلة .

بيد من حديد أمسك بها ، لأنها لحظة حياته كلها ، وبعنف شدها إليه ، فانهار الأب من طوله على الأرض .

تقوض وقد تحطمت الزلعة المقدسة .

كانت الفاصلة ، إذ خرج الفتى بلا رجعة .

هَجَّ إلى الغيطان ، مع الذئاب يبيت ، فى بير ساقية مع العفاريت ، فى أرض قصب أو ذرة مع الثعالب والجراء ، أو يبيت أيل للسقوط مع الجوارح .

لم يعد يخاف أو يحجم ، لأنه لم يعد يمتلك جهاز تفكير أو تقدير موقف أو حساب ، وأنس إليه الوحش والطير ، وانطلق على رسله كالريج ، يأكل مما تنبت الأرض .

---

( ٥ ) بورسعيد ولعلها من صدر اسمها الأجنبى ( بورت سعيد ) مع قلب الراء لاما لزوم شؤون سقف الحتك .



## ( ١٠ )

أبوه يقسو فيشتد ، وأبو أبيه يحنو فيشتد ، وكلاهما لا فعل له ، بل ردود أفعال مكتسبة ، حتى إنك لو أردت لا ، فعلت فعل نعم .

والأجيال تتعاقب ، جيل ضحية جيل ، بالقسوة مرة ، وبالرأفة مرة ، يقبُّ هذا ويغطس ذاك ، ومن غرق غرق . وأب روجي لا بد أن يكون قرداتيا ، يُغتال لو تعدى الهامش ، والأصح أن يقال انتحر ، ولا موطيء لعظة ، لأن الطموح الأخرق لا يصدر إلا من زلعة فارغة ، لها رنين لو نقرت ، أوداعبت الريح مناخيرها العالى ، المتورم من السباق ومن الشمم .

## ظهرة الهبلّة

### ومدام عزيزة الفرساوية

( ١ )

من قلب محب تبدأ الزفة ، يتوافد الصبية ، من الحارات يتصايحون يتجمعون  
حول ظهرة<sup>(١)</sup> .

وعصافير الجنة كلما رأوها خارج حدودها ، تنتظم صفوفهم حولها ، إلى منشد  
ينادى بمقطع : « ظهرة الهبلّة » ، ويطانة ترد : « دقوا الطبلّة » . ما لم تبادر هي  
بالإنشاد ، كلما أخرجها عن فلكها أمر ، فيؤلفون لها بطانة مسرسة ، بهذا جرى  
العرف الصارم بينهما .

وظهرة ، تأكل عيشها من مخارج الجاموس والبقر .

في ركن ناء من ذيل جنينة السجان ، وتحت شجرة زيتون فتية ، كالصبارة في  
زاوية قائمة تقعد .

وإذا أخرجت بهيمة شيئاً ، في موضع من محيط يطوّق زمام محب بالحواجز  
المائية القروية ، انتفضت كمن أصابه مس ، وانتفخ أنفها ، وفزت على خيلها ،  
واعتلّت حجراً أو كومة ، ودارت بأنفها في دائرة .

---

( ١ ) يضم الظاء وكسرهما أي المعين .

وعند موقع الجاموسة ، يتوقف دوران فنارها ، لاتكمل . تنزل وتتجه كالمنومة ،  
انفها مرهف إلى إطلالة الجلة من مخرجها ، تشده الموجات الصادرة من مخرج  
الجاموس والبقر .

أمام « البرطة العظيمة » تجثو . بقبضتها تحفن خفنة من تراب ناعم ، سحبته  
الريح إلى جانب الطريق ، تراب كالردة ترشه فوق شئنها ، وبالقبضة الأخرى  
تفرك يديها .

وبمهارة ودربة ، تتلقى عظيمها فوق راحتها وهي تبسمل . كحاملات القرايين  
تمضى ، وظهرها ومن فوقه رأسها فى سموق النخلة .

وفوق حافة جنينة السجان ، المطلة على الماء من جميع جهاتها ، والمعدة  
سلفا بقش الرز ونثير التراب ، وفى الموقع الذى عليه الدور ، تلقى بقربانها ،  
وتبسط حتى ينداح قرصا مرموقا ، ذا شفة مبرومة أو مدببة حسب الراح ، وبين  
يدى الإله رع تودعه ليتولاه بحرارة رعايته ، حتى يجف حلقه .

## ( ٢ )

كان حلم محب ، أن تقف عزيزة الفرنساوية أمامها عند مرورها بها فى الذهاب  
والإياب ، إذ كان على كل من أراد أن يركبها ، أن يطغ لها مشوارا إلى قرية  
الشعرا البعيدة غربا ، أو إلى دمياط شرقا حيث تبدأ .

كم يح زور محب ، وجفت اختامها وأسارير بصماتها ، فى التماس هذا الوقوف  
من أولياء أمورها ، دون جدوى .

وعزيزة الفرنساوية كما تسميها محب - مثلما تسمى الحمامة والماعز ، وكل  
أنثى تلد وتنمى الثروة - هى الديزل أو القطار ذو سكة الحديد الضيقة ، الملائم  
للزيق الضيق بين حافة الحقول والترعة الشرقاوية .

إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية ، وشح الفحم ، فنشطت محب بسليقتها  
إلى إنتاج الجلة ، الوقود الذى تسميه وقيدا<sup>(٢)</sup> ، وهى طاقة تشغيل أفرانها ، التى  
لم تكن تخدم أبدا ، وتقتبس البيوت منها نارها .

---

( ٢ ) وهى الأخرى فصلى .



أخيرا اضطر وقيد محب ، عزيزة الفرنساوية نفسها ، وبجلالة قدرها ، وصاغرة ، إلى أن تهدىء أمام محب وتقف .

ربما ما قبل الحرب كانت أيام عز الصفوة ، تحس عزيزة ، وهى ذات الجنسية الفرنسية ، بالإهانة تلحقها إن هى وقفت لقرية مفعوصة كمحب .

الخلاصة أن مدام عزيزة ، وقفت يومها أمام محب عند منزل القرعة الشرقاوية ، وطال وقوفها لتمون - اسم الله على قيمتكم - الجلة .

تلك الطاقة العفية ، التى تشغل أقران الموسرين وحدهم ، لأن السواد كانوا يستعملون قش الغاب ، أما حطب القطن ، فلمن رقص على السلم ، أو شاف نفسه فى الساحة بين الموسر والمعسر ، والمعول أقلها دخانا .

زاد الطلب على الجلة ، وصار لها قيمة وسعر وكرامة ، وشافت لها من نفسها يومين ، حتى أطلقت عليها محب اسم « مسكة » اعترافا بفضلها وتنزيها .

أقراص الجلة التى كانت تستبدل بأرغفة الخبز الخارج من نارها ، أو تباع بالكوم ، ثم بالعد ، ولما شرفت عزيزة أبت إلا الوزن .

وقامت محب كلها إلى تربية الجواميس واقتنائها ، والتعامل بها فى أهدافها الجسم ، كالمهور وشراء غابة أو قيراط ، وحج أو وفاء نذر أو دين .

وبالطبع تعددت فى محب مصانع الجلة وتوسعت ، وصارت كل أرض فضاء أو خرابة تستأجر منشرا ، وعملت كل البنات فى صناعتها ، وكل مصنع ابتكر له علامة تجارية تدمغ أقراصه .

وهكذا تم لمحب احتكار هذه الصناعة الثقيلة ، على طول خط عزيزة من دمياط إلى المنصورة .

أملة !

الجاموسة يومها - وبرطتها كانت مبروكة - فى مقام بير بترول ، ولم يكن يهون على محب التى ذاقت الكسب ، أن تذبح منها روحا ، حرام أن تذبح الفرخة التى تبيض المسكة .

وانطفأت الحرب العالمية ، وذهبت زنقة الفحم ، ولم تذهب خالة عزيزة ، فقد  
أدمنت الجلة ، ولم تقلع عنها أبدا أفرانها ورفاصاتها ، ولكن الحرب غيرت الدنيا ،  
وانفتحت الأسواق فجأة على الجديد ، وتفتحت العيون .

واستيقظ الناس يوما ، فوجدوا أرجلهم طالت ، وخطاهم اتسعت ، ونظروا إلى  
نينة عزيزة ، فوجدوا سكتها ضاقت ، وطرحتها تخرقت ، وسوادها لحسته  
الشمس ، وألفوا الممرات بين مقاعدها لا تتسع لركبهم . عزيزة أصبحت  
شخصيخة مخلعة .

وعرف الناس أنواع السيارات وخطوطها ، وتزاحمت في البر الآخر للترعة  
الشرقاوية من عزيزة ، التي لم تعد العين تراها إلا في النقل الخسيس ، أصبحت  
صنوا لحمار التتريب ، وأخذت تذوى وصحتها تتدهور ، حتى وافاها أجلها ذات  
يوم ، دون أن يحس بها أحد ، وكذا حال الدنيا .

وجرت وراءها الجلة ، وبير البترول بالتبعية ، ومحبا التي أقعت في ركن فوق  
شَلْق<sup>(٢)</sup> من القش ، تجتر أيام عزها ، في نواح أشبه بنداء مالك الحزين في  
محطات هادئة مترقبة من الليل ، وما أشبه محب بعد زوال عصر المسكة بمصر  
المملوكية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ولا أحد يحب النكدر وإن  
تجمعنا على سيرته .

أما ظهرة التي أدخلتها مسكتها تاريخ محب ، فما أسرع ما أعادتها جلتها إلى  
صبارة تحت زيتونة من جنينة السجان ، لا يخرجها إلا برطة من جاموسة ، أو  
سوءة من بهيمة آدمية .

كأنما كانت ظهرة تخطف رجلها في مشوار قصير كلفت به .

اكتمل عقد الصبية حول ظهرة ، فى زفة تخترق القرية والكفر .  
 ظهرة : سى التابعى إدانى حته بقرشين ، وقال لى : أوعى تقولى ، أقول ؟  
 أقول إزاي ؟ !

الصغار : وأنا مالى ياختى ، كسرها كسرها<sup>(٤)</sup> .  
 ظهرة : شفته تحت الزيتون ، فى جنينة السجان ، نايم ...  
 الصغار مكملين : فوق حبيبة القشلانة .  
 ظهرة : وادانى ..  
 الصغار : حته بقرشين .

ظهرة : وقال لى : أوعى تقولى ! أقول ؟ أقول إزاي ؟  
 الصغار : ونا مالى ياختى ، كسرها كسرها .

والزفة تمر بالسامر فى القهوة ، وفى أعقابها على طبالى العشاء يلوكونها  
 كالعجانة حتى تخمر بالزهو والغيرة ، من خلف قناع الغضب والتشفى .

ومن المؤكد إن لم يكن المسكين سى التابعى ، قد منح ظهرة حته بقرشين  
 ثمن سكوتها ، ماخرجت أبدا بالزفة ، ولا نقبت أصلا صمتها هى . ومن المؤكد  
 أيضا أنها راته كثيرا قبلها ولم تبع ، فظهرة لم تجرب أن تحصل على مال دون  
 عمل ، لم يحدث لها قط ، والسكوت فى عرفها ليس عملا ، فما البال بحة بقرشين  
 كاملة ، قطعة فضية دفعة واحدة ؟ !

---

( ٤ ) أى بشرها ، وإن كلن التفسير خاصا بالبط وحده فى لغة محب ، ولكن ما باليد حيلة  
 فى هذه الاستعارة .



## الأحمر والأخضر

( ١ )

ولماذا تشذ ، وكل قرية تتعلق بأهداب ولى من أولياء الله ، كالقرادة فى أعلى فخذها ، أو تحت إبطه ، تستمد منه الحماية والعون ، وكافة شؤون الروح والأحلام والبخت والغيب ، وبلى الصدى وكشف الغمة ، فضلا عن القدر السماوى والمقدر الأرضى ، بالإضافة إلى المخبأ وشر الطريق .

قائمة ضخمة من الأعمال الثقيلة ، كان الله فى عون عونه ، كيف يجد الوقت والجهد ، إن لم يكن السر باتعا ؟

ثم شئ يفقع المرارة ، أن يبنى أهل النذور من أبناء محب ، القبة فى انتظار ولى تبعث به العناية الإلهية ، عملا بحكمة : « السلبة قبل الجاموسة » ، وذلك لنقض اليد من إجراءات اعتماد محب وتعميدها .

وحينما تبين أن العناية ليست تحت الطلب ، لأن قائمة الانتظار يطول بالها ، أخذوها من قصيرها فى السر وتصرفوا .

ثم انتزعوا من القرية اسمها « محب » ، والصقوه به « الشيخ محب » ، ثم استعاروه منه لها ثانية ، أصبحت محب القشرة الذهبية ، وهو الذهب الخالص ، إجراءات من أجل ضمان الولاية وجواز السر .

وليت الأمر يقتصر ، ولكنه بعد أن اعتمر القبة ، وارتاحت فوق رأسه ، وارتاح رأسه تحتها ، شرع يفشخ رجليه ، ويفرض الإتاوة ، ويدخل شريكا ، حتى صار الأمر الفاهى فى الأحلام بالطبع . وشمع « منقاد بالداخل ، وفانوس بالخارج يضىء له إسراءه ومعراجة إلى كراماته » .

ثم .. الحماية المادية ، وهي الإدارة المعنونة ، التي يتولاها الخفير عن شيخ  
الخفر عن شيخ البلد عن العمدة عن المأمور عن الوزير عن رئيس الوزراء عن  
السلطان الشرعى عن السلطان غير الشرعى الأبتع سرا وجهرا فى لزوميات مالا  
يلزم .

حمايتان لا تبيتان إلا متعشيتين ، فماذا يتبقى للكادحين من عرقهم ؟ !  
( ٢ )

أبواب محب كالعيون ، تنفتح مع عين الشمس لحظة إشراقها ، وعند الغروب  
تغمض الأبواب معها . طقس من طقوس محب لا تشذ عنه إلا فى أربع : موت أو  
فرح أو حريق أو سقوط جاموسة فى بير ساقية ، ولا خامس لها .

ومنذ أن سمعت محب بالنبأ ، لم تعد أبوابها ترسو على عقب فى ليل أو نهار .

السلطان الأحمر غير الشرعى يريد أن يوسع الطريق ، ليكون حربيا بين  
القيادة فى القناة والأطراف ، ومقام الشيخ محب يعترض . الإنجليز أمروا بإزالة  
مقام الشيخ محب .

والكل فى محب يسمع عن الإنجليز ولم يرههم ، يسمعون أنهم فى « مصر »  
يركبون الحكومة حماريا<sup>(١)</sup> ، ويقعدون فوق أكتاف الملك منجعصين ، فإن أرادوا  
أن يسوقوه ، هزوا أرجلهم ليس إلا .

فقط يعرفون أنهم حمر الوجوه ، فى لون الطربوش ، وعرف الديك الرومى ،  
وحينما يريد الصغار أن يستحضروهم كما تستحضر الأرواح ، يلعبون لعبة  
الطربوش ، التى أطلقوا عليها « لعبة الإنجليز » ، يذهبون إلى طرابيشهم  
الزعراء ، وأمام الديك الرومى ينحنون قائلين له غائظين : « طربوشى أحمر من  
طربوشك » . يظلون يكررونها فى تحد إلى أن يهبط ببوزه ، مفرغا انتفاخه فى  
كركرة هائلة ، أشبه بموسيقا القرب .

ولكن الإنجليز فى الحرب ، ينزعون عن وجوههم كل الأقنعة المصرية  
والبراقع ، لقد حددوا موعدا لإزالة الشيخ محب .

---

( ١ ) أن يركب الحمار وساقاه معا فى جانب واحد منه .

- طب وما يزحزحوش الطريق من جنب المقام ليه ؟
- دول شبرين يا عالم !
- يعنى حبكت ، طريق على ميزان الميه ياهوه !
- وباتت محب على دخن تغلى .

### ( ٣ )

ومع حبة ندى مدلاة من عود يتدلى من حافة ماسورة مجار ضخمة ملقاة على حافة غيط ، تتلأأ أول شعاعة ، من خلال الماسورة تنفذ ، وفى زاوية حادة تدخل .

على رجل بشرية مثناة ، تحط وتفرش وتتكىء وكأن المكان سدره المنتهى ، تمتد الرجل على راحتها متسلبطة ، حتى تطل من الماسورة إلى حيث عشرات من الشعاعات تلعب الحجلة ، وتنط الحبل على عتبة الماسورة .

تطل الرجل الأخرى محتكة بتوعمتها فى عصبية ، تتقلصان معا ، ثم تنسحبان إلى خارج الماسورة ، وتظلان تطولان إلى ما لا نهاية .

ساقان طويلتان مُعصصتان ، كماسورتى بندقية بروجين ، فى آخرهما قدمان طريتان فى ملامحهما بقايا نعمة ، يظهر الجسم ويخرج الرأس وينعدل ، يستقيم الرجل على رجليه .

كالفتار يدير رأسه ، عيناه تسرجان ، إلى أن تستقرا على الطريق إلى داخل محب .

ماسورة المجارى - التى تبقت بعد تركيب الخط من المدينة ، لتصب فى مياه محب - اتخذها بيتا .

قدماه على الطريق خفان ، حينما تلمسان الأرض تفرشان وتلبدان .

ومن فوق أكثاف مستقيمة كأكثاف القبان ، وتحت شعرات الحاجبين الكثين النافشين التأثيرين ، عيانان تتحدد بهما الأشياء وتثبت .

عند مدخل القرية توقف ينظر ويتملى من قرن الشمس ، يشحن عينيه ، والقرن خرج أحمر كبيرا مائلا يطش فى سحابة ، لم يرفع عنه عينيه .



حينما اتسع إلى حجم الغربال ، عقد ما بين حاجبيه ، وفرد قامته الفارعة ،  
واشراب إلى رأس المئذنة إلى جواره ، استدار الفئار ، تطلع إلى خيال المئذنة  
وخياله ، الاثنان كالساقين متلازمان ، وفي طول واحد .

وحيثما استعاد نظره ، كان المنظر قد تغير ، الشمس صبغته باللون الوردى ،  
والبيوت فتحت عيونها وأفواهها على مصاريحها .

اخترق الطريق ، وفي سكون الصباح مضى يردد بصوت كالرعد :  
على العبادى موش ابن الكلب .

الى فرعنوك يا فرعون .

همه أولاد ستين كلب .

ستين كلب .

قربت ساعتك يا ابن الكلب .

جاي لك عسكر من تحت الأرض .

يا فاروق يا بن نازلى

ياكلب يا ابن الكلب .

والصوت يزلزل محبا ، فتفجّل البيوت كل عيونها ، وتصطف على الأبواب  
والشبابيك والسطوح ، والأطفال من بين السيقان تتسلل إلى الطريق خلفه ، وكلما  
تقدم تضخم الموكب ، حتى إذا ما وصل إلى ميدان القهوة ، استدار إلى قطيعه  
هو النخلة ، تحته من بعيد تتطلع جوقة من أطفال محب ، لم يتخلف أحد عن هذا  
المشهد من حياة محب .

يقبض حاجبيه بشدة ، تتجمع الشعرات الثائرة فى مؤتمر . تتقاطع كالحراب  
المسددة ، ينفخ يشرتب ، والصبية عصافير الصباح شاخصون .

وبالجوقة استأنف السير إلى الكفر ، الشق الآخر المزدهم من محب .  
على العبادى موش ابن الكلب

الى فرعنوك يا فرعون .

يسرع الأولاد : همه أولاد ستين كلب .. ستين كلب ..

هو : قربت ساعتك يا ابن الكلب .

جاي لك عسكر من تحت الأرض .

يقشوك يا منفوخ يا ابن الكلب .

يا فاروق يا بن نازلى .

الأولاد : يا كلب يا ابن الكلب .

يختلج على العبادى ، لأن المنظر استهواه ، فيعيده مسرعا الخطى وعيناه تسرجان .

على العبادى موش ابن الكلب .  
الى فرعنوك يا فرعون .  
- همه أولاد ستين كلب .. ستين كلب .  
حاجب الطعام عن جعان .  
- كلب ابن كلب .  
وظل يكررها حتى خرج إليه أحدهم ، واقتاده إلى الداخل ، وبعد دقائق خرج مندفعاً زاعقاً :

ملوخية من غير لحمه يا ابن الكلب ؟ !  
على العبادى موش ابن الكلب .  
ملوخية من غير لحمه .  
- يا ابن الكلب ؟ !

#### ( ٤ )

وقبل الموعد المحدد الذى ضربه السلطان الأحمر لهدم ضريح الشيخ محب بثلاثة أيام ، ومع مطلع النهار الجديد ، سد غربال الشمس ، بدا فى هذا الصباح كفلق النخل ، بل الجمل الغاضب ، مضى يضرب بالقلعة<sup>(٢)</sup> :

على العبادى موش ابن الكلب  
انتو أولاد الكلب  
سيبوا الاخضر للأحمر .  
على العبادى موش ابن الكلب .  
أنتو أولاد الكلب .  
سيبوا القوة للكرامة .

دار يهدر بها فى الشوارع ، والظالمون الكبار خارج أبواب الدور يقفون على رجل ، لا يريدون أن يصدقوا هذا الرسول العاتى الغريب ، الذى وفد منذ أيام ،

---

( ٢ ) حين يشتد الغضب بالجمل ، يخرج من شذقه مع الزبد وهو يهدر ، كيس منفوخ على شكل القلعة .

والصبية من ورائه يتزايدون ، وقد ازداد خفه في الأرض التصاقا ، مضى ويداه الطويلتان براحتين كالمطارح تمتدان :

على العبادى موش ابن الكلب .

والصبية حفيين بالجملة في البدء ، وبمدلولها بعد ، يردون ناظرين الى عيون الكبار زاعقين :

أنتو أولاد الكلب .

سيبوا الاحمر

فيسرّسعون : للأخضر .

على العبادى موش ابن الكلب

- أنتو ولاد الكلب .

سيبوا القوة

يسرّسعون : للكرامة .

لف القرية كلها ، ثم انحسر كالموجة مخلفا الفراغ المخلخل .

لم يسأله أحد عن معنى ما يقول ، لأنهم موقنون أنه لا يسأل عما يقول أو يفعل ، ولأنهم فهموا جيدا ، إلا أنهم يريدون أن يلمسوا بل يمسكوا .

جمعوا هذا وصرّوه ، وداروا به بحثا عن ابن سيرين . وإلى ابن لهم يدرس بالأزهر ، سافر وفد من الفور ، وفي حجره ألّقوا بالصرة .

- يا شيخنا الأمين ، عبد الحميد ، أفتنا .

وأفتاهم بأن الأحمر هم الإنجليز ، وأن الأخضر هو الشيخ محب نفسه ، إنه يقول لكم : دعوا كرامة الشيخ محب ، تتكفل بالإنجليز ، إن صدق أوقفهم ، وأنا أضم صوتى إلى صوته .

وتركت محب الديكين متواجهين .

ليلتها غلّقت أبوابها مع الغروب ، ونامت ملء الجفون .



( ٥ )

لم يتركه الأطفال، التصقوا به ، استقفوه<sup>(٣)</sup> واشتدوا عليه ، حتى أوشك أن يفقد استقلاله وانفراده بصعلكته .

ذات صباح ، كان مُقعيا امام عتبة داره الماسورة ، وهو يدخن من وهبة سجائر حملها إليه شابان لم تطمس لقمة العيش رأسيهما ، قال أحدهما : العمدة جاي اهو .

- اسمه إيه ؟

- محمد رسلان .

وانتصب من مجلسه ، وقد انقلبت سحنته ، زاعقا :

على العبادى موش ابن الكلب .

يا محمد يارسلان يا ابن الكلب .

حوش عنى العيال يا ابن الكلب .

وأسرع إليه شيخ البلد الحاج سيد العربانى ، يمسكه فى ود بالغ :

- طيب طيب يا عم على ، حاضر يا عم على ، حنحوش يا عم على . ولا يكون

عندك فكر يا عم على .

أما العمدة الجامح ، فقد ولى ولم يعقب، أو يعتب هذه الناحية من بلده عمره .

( ٦ )

منذ التباشير الأولى للنور ، التى تبعث بها الشمس طلائع قبل أن تظهر ،

أفرغت بيوت محب ساكنيها ، هرولوا إلى التربة الشرقاوية .

وحول مقام محب ، تحلقوا فى دائرة مفتوحة على الطريق .

والأرجل التى كانت كرفاس القطار تحركها اللفة ، انغرزت جذورا راسخة

لجدار دائرى على البرجل .

---

( ٣ ) فصحاها استقفوه اى تبعوا اثره ليسلبوه حريته .

وفوقه زرعت الرؤوس ، كأفاريذ الأسوار القديمة ، والعيون مرشوقة في  
الرؤوس كالأبزاز في ألواح الخشب .

الآبصار كلها شاخصة إلى مركز الدائرة حيث الضريح .

وانشق الأفق عن العمال ، وتحركت رؤوس الجدار ، وعجزت الجذور بالطبع .

عمال زراعيون من الزمام ، معروفون بالاسم ، أتوا بمقاطفهم والمعاول  
والقؤوس .

وعند نقطة الالتقاء بالطريق القديم ، تنفتح الثغرة المفتوحة ، يدخل منها  
العمال ، تلتئم ليصبح الجدار الغليظ دائرياً أصم بلا مسام .

دارت العيون تفحصهم وتزنهم واحداً واحداً ، إنجليزيو الهوى ؟ أبداً ، إذن  
مالهم لا يتوجسون أن يصيبهم الشلل ؟ ! مالهم آلات لا تحس ؟ أليس هذا صالح  
عرنسة حشاش الغاب ؟ ومحمد أندوز الصعلوك الأعظم الذي يبول على نفسه وهو  
نائم بين الغاب ؟ ورجب وشعبان ورمضان ؟ !

ما لهؤلاء بمعاولهم لا يختلج فيهم عرق ؟ !

هؤلاء لا يؤمنون إلا بالممّ ليس غير .

وحينما ارتفع أول معول ، امتلأت معه الصدور والأعناق والأوداج بالهواء ،  
والعيون .

اليد وهي نازلة ، تنشل لحظة ملازمة طوب الجدار . معا نزلت المعاول ، كأنما  
لينا لهم مصير واحد .

ارتفعت ونزلت ، وارتفعت ونزلت ، نزلت ، نزلت ، وداخل العاصفة الترابية  
انتظم العمل .

كأى جدار ، واهتزت الأكتاف ، وتحركت الجذور ، وكم أخذت الريح من  
البلاط . عدم عدم .

لكن لا .. مستحيل إذ ما ذنب هؤلاء العمال ؟

الشيخ محب سوف يُعطي السلطان الأحمر نفسه لا محالة . سوف يخسف بهم  
الأرض .

ليلتها نامت محب بعين واحدة يتفخون ، بأبواب مقفلة المصراع إن كانت من  
مصراعين ، ومواربة إن كانت من واحد .

ومع الشعاع الأولى تفتحت العين الخامدة على الصوت الهادر يهزم هذا ،  
وحده بلا أطفال .

على العبادى موش ابن الكلب  
أنتم الكلاب الخنازير الأنجاس .

يطلق ضحكة مدوية .  
ياميت ندامة على اللي حب ولا طالش .  
محب ابن ستين فى سبعين كلب .

محب فص ملح وداب .

ضحكة مجلجلة :  
على العبادى موش ابن الكلب .  
دى القبة الخضرة تاخد ولا تدّيش .  
حاميا حراميا ياكلاب يا ولاد الكلاب .

ضحكة مجلجلة :  
دى الكرامة ياكلاب أنجاس  
للى عنده كرامة كرامة كرامة .

يومها بطوله لم يُفتح باب ، ولم توارب نافذة . نزل عليهم سهم الله .  
وانشقت الأرض ، وابتلعت على العبادى الكلب ابن الكلب .



## فشار محب

( ١ )

فى الضحى يعود ، يتوسط جنبتي<sup>(١)</sup> السمك المدلاتين من حماره . ساقاه  
متشابكتان فوق جنبه الشر ، يجوس خلال القرية مناديا : « يا لى يشوى ويقلى  
ياولاد ، اللى تشوى وتقلى يابت » . ولم يكن يزيد عليها .

تطل محب ، ثم تتدار لتكشف حلقها ، وتتحرك بالغطيان لا يتخلف أحد ، لأنه  
يحمل غذاء الجميع : الشر الصغير جدا ، لبط الموسرين مع فقراء الادميين ،  
وفى جنبه الأخرى ماشد حيله من سمك .

فى ميدان القهوة صرة محب ، حيث تلتقى كل السكك ، ينتهى مطافه ، وما بين  
دكان ندى الأب الأكرش ، النساج نهارا ، وفراش المياتم ليلا ، ودكان ندى الابن  
نصف الأكرش والأبخر فما ، المزين وحلاق الصحة ليل نهار ..

بينهما يحط جنبتيه ، وفى حديد شباك المنسج ، يربط حماره العفى ، يقدم  
إليه غمر العشب الذى حشه من لحود القنوات ، وعلى كفله يربت فى امتنان  
بالغ .

تنشق الأرض عن القطط تموء وتتمسح ، ينتقى لها من جبة الشر حفنة من  
أصغر صغيرها يلقي بها ، وكل قطة تخطف جهدها تجرى به ولا تعود ، هكذا  
عودها فى زكاته اليومية قبل أن يستفتح .

---

( ١ ) الجنبه أضخم من القفة ، والقفة أضخم من المقطف .

يعد موازينه ، بين الجنبتين يتخذ مجلسه ، ينطق<sup>(٢)</sup> السمك في كل جنبه ، ثم  
لا شيء سوى الزبون .

وعم حسن ندى النساج الفراش ، منحن على الجنبه ينتقى ويعبىء في  
قراطيس معدة سلفا ، ومفروزة في خرق بعارضة المنسج . القراطيس لمن أوصوه  
ممن لاتخرج نساؤهم ، يوصلها بنفسه ليعقد في مقابلها مع المكنونات في  
البيوت ، صفقات الأخبار الخاصة والملتهبة .

وكلما لاحت لغم السعيد هدأة ، بالوسطى والسبابة من فوق ، والإبهام من  
تحت ، وبالدن والزفارة ، يفتل شاربته ، فتقر كل فردة قائمة على حيلها سُنْكيا  
يقف عليه الصقر في السهرة .

في بحر ساعة زمن يكون قد جبر ، يودع ميزانه بسنجه الزلط ، خلف قائمة نول  
ندى القصية ، يحمل حمارة الجنبتين الفارغتين ويمضى إلى بيته .

## ( ٢ )

في العصارى يتفرغ لشؤون الحمير ، في الساحة الصغيرة أمام بيته ينصب ،  
تأتيه الحمير والجحوش ، يسنن ويفصد ، يقيد بعض الأرجل الغضة ليعلّم  
الخطى ، يثمن ويبيع ويشترى للناس .

## ( ٣ )

عم السعيد شلاطة صموت صموت ، لا ينطق ، إلا بمقدار ، والداخل إليه لا  
يخرج ، وإن كانت امراته حفيظة الفسكرية<sup>(٣)</sup> ، تحترف الردح في محب ، تتزود  
بالأسرار لتدعى في الملمات .

---

( ٢ ) يهزه هزة الغريال ، ليجعل من عليه سافله .

( ٣ ) هكذا تنسب محب إلى فارسكور ، بالاستغناء عن خدمات الرء الأولى - وهو إجراء  
سليم .

إذا جلس في شمس الشتاء ، أو نسمة صيف ، غار إلى أبعاد سحيقة وهو  
يزن ، حتى يبدو كالمصير ، والريح وهي تلوذ بأكتاف فمه وأنفه هي التي تحدث  
الزن منها لروحها .

#### ( ٤ )

ذهب مرة يقضى حاجته ليلا على جريف<sup>(٤)</sup> مصرف الخشبة . فجاءته قطة ،  
وقفت أمامه تنظر إليه وتطيل النظر ، وعيناها تسرجان في الظلام .

قال لها وهو يزغر<sup>(٥)</sup> لها : بس .

قالت له : لا ما بابسش .

قال وهو يشد إليه لباسه قائما بغائطه : أبس انى<sup>(٦)</sup> . أبس انى . أبس انى .

#### ( ٥ )

بعد العشاء يغتسل ويلبس ما على الحبل ، ويخرج إلى السهرة .

وعم السعيد في قهوة يوسف قعر مجلس ، تنحل منه عقدة اللسان المربوطة  
نهارا ، تحلها الأعين المتطلعة ، والأفئدة التي تتفتح معا كنوار البرسيم .

« أنا كنت راكب حمارى

سارح على بحيرتى

غارق فى ملكوتى

وباهز ف رجليه

إلا والأرض تنشق

ويطلع لى منسر :

انزل وطلع اللى ف جييك .

---

( ٤ ) المنحدر من الضفة .

( ٥ ) يطيل النظر بلغة محب ويدقق .

( ٦ ) أنا بلغة محب ( أنى ) .



عنها ونزلت .  
 حكم القوى ع الضعيف .  
 تقفل إيه ياد يا سعيد ، فى الخناجر الثلاثة ، فى الوش والجنبين ؟ وخنجر  
 الوش جايلك من تحت ، ومقور ، زى الشرشرة ؟  
 وف إيد مين ؟ شيخ منسر ؟  
 يفك زارار من زراير الصديري ، فاتحا لتيار الكلام طلقة . تنحبس الأنفاس  
 أكثر ، حتى تسمع للإبرة هبدة المرزية .  
 تعمل إيه يا سعيد يا وحيد .  
 من غير لا سلاح ولا حديد ؟ !  
 يفك من الصديري زارار آخر .  
 ورحت متمكن .  
 وناقضه قلم .  
 انغرز فى الأرض سبع تمترار .  
 ولأول مرة يمسح سامعيه بنظرة ، ليسبر على الأصداغ رنين القلم .  
 وعم مصطفى الجمل ، ترمومتر كل صهبا ، يسرع - وهو يدعك صدغه بيده  
 بإغلاق فمه الذى نسيه مفتوحا على مصراعيه من جراء موقف كان بالأمس  
 حاميا ، ليفتحه من جديد .  
 على الطلاق ، انغرز فى الأرض سبع تمترار .  
 طلاق ثلاثة من حفيظة .  
 كل ما تحل تحرم .  
 سبع تمترار .  
 إجت الخلايق ضفف .  
 تسد عين الشمس .  
 على الحلال نفضة قلم واحدة  
 ما تنيتها .  
 وهات يا عزق وتشوين .  
 همه مين ؟  
 يفك زرايرين معا :  
 عنها ورحت قارد دراعاتى  
 وزايح باليمين أهل اليمين .  
 وبالشمال أهل الشمال .  
 وللأرض وطيت .

ورحت نابش بصبعي .  
على الحلال نبشة واحدة ماتنيتها .  
وناتشه موقفه على حيله .  
ومطبطب عليه ، وقايل له  
وايدى بتقرص في ودنه :  
المرّة دى عدت على خير  
تاني مرة يا شاطر .  
ما تهوّبش ف سكة عمك السعيد  
عمك السعيد شلاطة .  
إيه ؟ ! ،

ويتنفس المجلس ويتنحّج ، وتتحرك الكراسي ، وتتحرك الأقدام والمداسات  
بالأرض ، وتزعق الأصوات بالطلبات .

وكلما مر أحد بساحة القهوة ، تطلع إلى زراير الصديري ، ليدرك إلى أي حد  
وصلت سخونة المحدث .

وبعجلة ، وقبل أن يبرد منه الجو ، يرتفع صوته ، وهو يزرّ مافك :  
« وليه ؟

دنا داك النهار  
وأنا باخووض في الميه  
على فيض الكريم  
وقع لى لبت<sup>(٧)</sup> سمك ، لكن مكن ..  
قد العجل اللباني .  
طلاق ثلاثة عجل لباني  
أوديه فين ؟  
توديه فين ياد يا سعيد ؟  
وقدامي ، لقيت ساقية واقفة .  
بتمد لى ذراعاتها .  
عنها وربطته في الهدية<sup>(٨)</sup> .

---

(٧) هو الكبير الضخم من البورى ، والصغير هو القطع ، أما المتوسط فهو البورى .  
(٨) الذراع التي يجلس عليها الغلام والبهائم تدير بها الساقية .

ونزلت أكمل صيدى .  
 ولما طلعت بججر بيتلعبط  
 لقيت الأرض على مدى الشوف  
 غرقانة ميه .  
 طلاق بالثلاثة من حفيظة الفسكرية .  
 كل ما تحل تحرم .  
 عجل السمك .  
 دور الساقية ، وروى الزمام .  
 على الحلال الزمام كله .  
 على داير حوض وتربية «  
 وتهيج الزيتة والزبليطة ، ويوزع يوسف شومان الجوز ، وتُجَبَد الأنفاس ،  
 ويعربد الدخان .  
 طب وجالكو كلامى ؟  
 دانا أولتَمْبِيرِح<sup>(٩)</sup> .  
 شفت فى المنام .  
 خير اللهم اجعله خير .  
 أنى فى قلب شَكَلَة<sup>(١٠)</sup> مالهاش أول ولا آخر .  
 هد وتكسير ومزاريب دم .  
 عنها ولقيت خمس شَمَخْطِيَة .  
 سادين سكنى  
 وطابقين فى زمارة رقبتى  
 ده حلم واللا علم ؟ !  
 ورحت متمطمع .  
 وساكهم لوكامية<sup>(١١)</sup> .  
 وزى موج البحر ، سحبنى النوم من الحلم .  
 اللا والحاج على الجمل ، الله يمسيه بالخير .  
 خارج لصلاة الفجر .

(٩) أى لول امبلرح ( البارحة ) .

(١٠) أى عركة بلغة محب .

(١١) أى لكمة .



لقى إيدى بره فى الشارع .  
إيدى يا خُونًا خرقت الحيط .  
شدها ونده على :

عم سعيد يا عم سعيد ، قوم أصح .  
واسحب إيدك من الطريق .

ونظروا إليه مأخوذين لا يرمشون ، فتولاهم بسرعة :

طب وقولتلكو إيه ؟

أنى امبيرح بس

سحبت حمارى .

ودماغى سارحة .

ماهياش ويايا .

وأجيت انط عشان اركب .

لَقِيت نفسى فوق ، فوق السطح .

وانفجر السامر فى قهقهة ، وحركة دائرية ، وامتدت الأيدى من تحت  
الصدارى والآباط تهرش .

## ( ٦ )

صالح عرنسة الحشاش والصعلوك النزيه ، وحشاش الغاب ، والباصق فى  
سمكه البورى قبل ان يبدأ الأكل ، ليغلظ فى عزومته دون أن يتقدم أحد بالطبع .  
فى الضحى كان ينتقى نصف أقة ، فاعترض عم السعيد على تفغيصه سمكه ،  
فأمسك صالح بخناقه ، ورقعه قلما دارت به فى رأسه جنبتا السمك والميزان  
والزبائن والدكاكين والبيوت ، والعيون ، والصمت الذى حط فجأة على محب .

غطى عم السعيد صدغه بكفه ، ولم يرفع إليه بصرا .

وبعد العشاء ، وبحكم العادة ، وعلى نبرة حرجة من استحياء ، اتخذ مكانه  
الليلي من القهوة .

من أول استفتاح ، لم يجد العين النفاذة ذات البريق ، ولا الأذن التى كانت .

انطفأت النار ، وخمد الألق .

عينه انكسرت .

## ( ٧ )

وكل يوم من الفجر الكاذب<sup>(١٢)</sup> ، يركب حماره ويرحل . لا يعود إلا بعد العشاء  
يكل عشا .

يتخذ مكانه من البحيرة ، شاخصا إلى مائها ، وكلما ارتفعت موجة ، غطى  
صدغه بكفه .

---

( ١٢ ) كثيرا ما يبيضُ الأفق الشرقي قبل الفجر ، فيخدع به نيك مشوشة اجهز  
البيولوجية ، فيصبح معلنا الفجر الكاذب ، وتقول القواميس : هما فجاز  
لحدهما المستطيل ، وهو الكاذب ، ويسمى نئب السرحان ( النئب ) والآ  
المستطير وهو الصالح المنتشر في الأفق .

## من كفته خرج

انحنى على مسمار صديء ، يخرج من كتلة خشب عجوز عتيقة ، فقدت صلاتها بأية عائلة من عائلات الخشب المعروفة .

أخذ يسترضى الكماشة ، والكماشة تسترضى المسمار ، والمسمار منتفخ وارم فى جوف الخشب المتصلب ، والزمن بينهم لائنص راكن ، والكماشة عتيقة هتماء .

وجهه المنحنى كخذ الجميزة ، التجاعيد والأخاديد والفجوات والأبزاز نفسها ، بل كتلة الخشب التى بين يديه .

ظهره إلى الشارع ، ووجهه إلى الحائط المائل إلى الشارع داخل الدكانة الحدياء المتكئة إلى عصا من جنس عصاه التى تسند الباب .  
كل شىء ملصم .

وطوب الدكانة العارى العتيق ، الذى يعى حفر البحر ، طوب أضمره الزمن وامتنعه ، صغير محندق كالقول السودانى فى قطعة الفولية .

الكل شارب من بعضه ، ومن مسقاة واحدة .

يعمل نجار قباقيب وطبالى وكراسى حمام وأرفف للنحاس ودواليب عيش ونمالي .



والزمن فى انتظاره وهو يعمل طول النهار على رسله ، فى إنجاز قبقابين اثنين ، أو أرجل طبلية فى صمت مطبق ، لا أحد يحس به فى الشارع الصاخب ، ولا يحس بأحد ، إلا هذه الكائنات الخشبية التى عملت معه فى الوقت الإضافى .

يا عم محمد من يشتري اليوم قبقابا بحذاء أو زنوبة ، والقبقاب فى إثر الطربوش مضى ؟ ! من يأنس إلى طبلية ، ويسلم قامته إلى كرسي قريب من الأرض ؟ .

وانقطم المسمار الصدىء .

وانعدل فى وقفته ، ووصل سرواله العَبَك إلى صابونة رجله ، وتحركت شفتاه باسم من أسماء الله الحسنى ، وخرج صوته منغما .

كتلة الزمن العتيقة ، لم تستطع أن تتدف فيه النغم مع ما وأدت من ذكريات .

كان الكبار صغارا وهم يشهدون التراويح فى رمضان بمسجد النعمان ، وعم محمد النشار يُبلغ خلف الإمام .

الإمام يتلو : « مدهامتان » ، وهى أقصر آية فى القرآن ، فيبلغ : الله أكبر سمع الله لمن حمده الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، متصلة فى الركوع والسجودين والقيام فى نفس واحد طويل منغم .

وفى ثلاث وعشرين ركعة ، لم يكن يدع لأحد الركون إلى غفلة أو سِنَّة من نوم أو سرحة .

كان يملأ الأذان الصغيرة بريح المسك ونسائم الجنة .

أيام كنا صغارا ، يوقظنا من أحلى نومة ، صوت أبعد ساقية من سواقى الرز الساهرة دائما ، نتسلت من البيوت الغارقة فى وَحْم النوم وأبخرته ، إلى السحر - قبل أن يدوس الكبار رقائق أحلامنا - ركضا إلى السواقى الناعرة بالخضرة الجارية الرقراقة ، نمسك عنهم بالفرقلة<sup>(١)</sup> نلاغى بها الثور والجاموسة ، ونعطى هُدْيَةَ الساقية تهدد لنا أحلامنا ، وهى تلف بنا مدارا بعد مدار .

---

( ١ ) مقبض خشبى يخرج من عينه حبل طويل من التيل ، وهى للماشية وحدها ، تفرقع ولا تؤلم .

لم يكن يخرجنا من هذه الأحلام إلا عم محمد النشار وهو أت من بعيد ، لافعا  
مقطف العدة على ظهره ، ويده تطل مع أيد أخرى بعضها من الحديد البارق ،  
والبعض من الخشب الأصم .

يده مع أيدي العَوَاقَة والقُدم والقُرناص والربوع . والمنشار في يده اليسرى  
يتطوح .

كان يعمل نجار سواق ، يلف زمام كل قرية ، « ويطل » على السواقي ساقية  
ساقية ، كحلاق الصحة الذي يلف على الزبائن يعطى الحقنة أو الشربة .

ولم يكن عم محمد يتقاضى عن كشفه فلوسا ، وهل للرمز قيمة مع وجود  
الأصل ؟

كان أجره من المحصول مع مالك الأرض وحلاق الصحة والمزين والفقيه  
والندوة والقيظ والغيط والصقيع .

كان يقطع الفراسخ على قدميه ، ولما تقدمت به السن ، استعان بحمار .

كان نجارا نطاسيا ، يعرف السواقي جميعا ، ضعفها وقوتها ، وديب السوسة  
في أحشاء خرس من خروسها ، والوهن الذي يتسرب إلى ضلع من ضلوع  
صغيرها أو الكبير ، يعرفها من صوتها ومن ركنتها في وقفها .

أما إن تصادف مروره في رحلة عودته بليل ، والجاموسة لا الثور ، لأنها دائما  
المجاورة للبئر لإراحتها بقصر الدورة الداخلية عن دورة الثور الخارجية ..

إن تصادف مروره والجاموسة ساقطة في بئر الساقية ، والفلاحة تشيل من  
طين القناة ، وتحط على رأسها ..

إن تصادف وما أكثر النوائب في محب ، فهو السريع إلى الساقية ، يفك  
صغيرها والكبير ، كما يفك الساعاتي تروس الساعة .

— يا عم محمد ، بيصبح عليك أبا دُوريش ، وبيقول لك ، والنبي اللي بتحبه ،  
وتحب تحط إيدك على شباكه ، تركب للقباق دهو سير جلد معتبر ، وتثبت السير  
بوزرة نحاس .

وانفلتت البنت تحجل .

في العام الماضي كان له ابن قيمة وسيمة ، نجار أيضا ولكن نجار موبيليا ،  
ونجار السواقي في محب يلد نجار الأثاث ، فتح الله عليه وفتح معرضا ،

واستهواه الفتح فكتب على بابه « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، وتزوج وكان له ولدان ، أول العنقود غليظ كزهرة البشتين<sup>(٢)</sup> ، وآخر العنقود رقيق كزهرة الفدين<sup>(٣)</sup> ، وكانت له عجلة ، والعجلة في محب تلدها الحمار .

عجلة بسلوك تعكس الأضواء ، وينور أمامي ساطع ، ونور خلفي أحمر ، ضلوعها مكسوة بالمشمع البراق ، وعن يمين وشمال مرأتان تضيئان ، كقرني الجدى المختال فوق الجدار ، من أجل أن يرى من خلف كما يرى من قدام ، وجرسان ، واحد أنثى مسرّسع ، والآخر ذكر قرار .

وكان اسمه أحمد ، ومحمد في محب لا يلد إلا أحمد ، بهذا جرت الأصول .  
وقبع عم محمد النشار في البيت ، داخل شرنقة حريرية من خير ابنه أحمد .  
هدأ في المعاش لا يظهر إلا في رمضان في صلاة التراويح ، يبلغ بصوت الجنة في أذان الأجيال .

وانحنى إلى القدوم ، ويبطنه هو الزمن ، أخذ يُنْخَر في كتلة الخشب ، حول المسمار الصديء النافس ، ليَمَكَّن للكماشة ثانية .

كان لعم محمد ابن اسمه أحمد .

واليوم ، لا ابن ، ولا عجلة ، ولا حمار .

اليوم على الحصير الأحمدى .

في عنفوانه سقط .

سقط الابن .

تقصّف .

كعود الصفصاف .

أبناء اليوم كشجر الصفصاف .

منظر وشعر مسبّس ، وظل وارف ، ويمام يفى<sup>(٤)</sup> وعصافير .

---

(٢) نبات مائي ، ذو زهرة داكنة . ودرن كنا ناكله ونحن صغار .

(٣) هي اللوتس .

(٤) يستظل .



أسقطته الكمبيالات والبروتستو ، والاتساع الذى ضاق عنه إهابه .

واليوم عن عم محمد ذهبى نجارة السواقى .

والسواقى تحتاج إلى عافية ثور ، وأقدام فحل ، وصبر جمل .

لم يعد فى المصباح إلا ثُمالة زيت .

وأسرة ابنه أحمد أضيفت إلى الجد .

الأحفاد أخرجوا الجد من بيته الأخير .

من الشرنقة .

من كفته خرج عم محمد النشار ، منحنيا إلى الدكانة المنحنية .

رجل طبلية ، قبقاب حمام ، وزرة نحاسية ، كرسى طشت ، عصفورة لنملية ،  
أو دولاب عيش .

يغزل بها الحياة لأحفاده .

من يرزق الدودة فى الحجر .

وانقطم المسمار بين فكى الكماشة .

وارتفع شاكوش الجزمجى محمود قامش إلى جواره ، يدق المسامير سِراعا  
فى الجلد المشدود إلى القالب .

## القرطاس الفارغ

رقبة كالبربخ<sup>(١)</sup> ، فوقها دايرن داير فك كرواق<sup>(٢)</sup> البيت ، وكتفان فى عرض الناف ، عملاق كف وقدم .

ومنديل محلاوى مشغول بالحناء فى حجم ملاءة السرير ، يتعمم به ملفوفا فى الشتاء ، مفرودا فى الصيف ، وطرفه يسترخى على قفاه المسحوب كسفع التل .

عالمه أطفال محب وكل الشطوط ، وفى آخر الموسم تظهر النساء : الفقيرة تملح ، والمبسوطة تحلى مربى .

لا يفنجل عينه ، إلا وهو يرسل الطرف إلى زيق الأرض المزروع بالجزر .

جيذا يعرف الجزرة المدفونة فى باطن الأرض ، من رقص الورقة المشغولة المنمنمة على هبات النسيم ، ومن درجة لونها الأخضر .

كل فلاح يزرع له زيقا أو شريطا فى فضلة من أرضه كعرف جار ، يتبلغ به حتى يحين المحصول الكبير .

---

( ١ ) الأنبوب أو الوصلة القصيرة الواسعة من خزف ، توضع واحدة منها أو أكثر تحت الجسور والمعلبر ليمضى الماء فى طريقه .

( ٢ ) مقدمة البيت البارزة عن الدور الأرضى ، وفى محب صدر صالة البيت الفسيحة ، يرتفع درجات إلى مسرح مشرف وشبك مشغول بالعريسات يبتلع الحائط ، والرواق للسهرة .

بيوت محب تنفتح فى الفجر لتصب فى الجامع ، وبيته يصب فى زيق الجزر  
الذى دعاه بالأمس .

يقتلع وجبة اليوم ، يحمل بها عربته ، يجرها إلى منزل التربة ، يعتق حمله ،  
يغطسه فى زاوية المنزل إلى جوار قوائم الجسر ، يدعك الجزرات ، يربطها فى  
حزم ، يرصها فى العربة ، منضدة فى نسق لوني رفيع : كؤوس حمراء ناطقة ،  
وشواش خضراء نابضة .

يواجه العربة ، يقبض على يديها بيدين من حديد مَعَزَّة ، وفى يسر يدفعها  
لتمضى بالدفعة .

يجر العربة والجزر غُفل ، ويدفعها والألوان النضيدة أمامه ، بلا أحلام ، بلا  
صلوات ، بلا خروج عن الشريط الذى عبدته له حياته منها لروحها .

ولا فراغ ، إما معلق فى العربة أو نائم ، ولا شىء بعد نداء شجى رخيم ،  
يصدر عن هذا الفيل الأليف ، ليرطب جوف كل من سمعه : « الشدة أد اتنين يا  
سِروى<sup>(٣)</sup> » .

بعربته يلف الشطوط حتى يجبر ، ولو اضطر إلى إعادة الطواف ، ولو تعاقب  
عليه الليل والنهار .

الجبر هو الزمن الذى يحدد له نهاية عمله ، ليتوجه رأسا إلى بيته .

إن جاءت عودته بليل ، وغالبا ما تأتى ، نادى امرأته بصوت أجش ، وهو يخطب  
شباكها ، دون أن يفقد صوابه أبدا : « بت يا هانم يا بت » .  
وتصحو الحارة كلها .

حينئذ يكون البيت بالحتم ، خاليا من الخبز ، فتبعث به امرأته إلى المدينة  
المجاورة ، والحارة كلها تلقن معه الوصية الأزلية .

- بطل فروغية عين ، لَجْم بقك ، ٢١ رغيف يعنى ٢١ رغيف ، أنا بقول لك أهو  
يا راجل يا مفجوع ، حنابات من غير عشا وذنبك على جنبك .

---

( ٣ ) نسبة إلى مدينة السرو من أعمال المحافظة نفسها ، ومحب كلها تعلم جيدا انه  
محلى .



يتأبط هذا الحمل من الرغفان ، وفي ظلام الليل الرابض له ، في أعطاف الطريق ، يحلوا معدته أن تزوم ، يمزع الرغيف من تحت إبطه مزعتين ، وكل مزعة مضغة .

والحارة تصحو ثانية على الصوت :

- إنت يا راجل يا مفجوع ، مفيش في عينك نظر ؟ جاموسة تلوش ١٤ رغيف في السكة ؟ تتصبر بـ ١٤ رغيف ؟ ! ياريت طولك عندنا جلة .

ولم يكن يآبه بكلام ، قرصة برغوت ، بل زنة ناموسة .

والحارة تدرك أنه بدأ الأكل ، وزنه يرتفع مع المضغ والبلع ، والليل جلاء للأصوات ، ولكل دولا ب دوار نبراته ، ونبرات عم عبده ، أشبه بقرط قش الرز بالشرشرة ، قبل إلقائه مع الدريس المقروط للجاموس .

والهليلة تشتعل في الحارة ، يوم تبعث به امراته في شراء سمك . في الطريق لابد أن يأتيه الصوت المرادف للسمك والمخاويه : نو .

وبسمكة تمتد يده بلا أدريه سابقة ، تلقى إلى « النوة » . ويفسح الصوت لأصوات : « نو نو » ، وتلقى اليد بسمكة ثانية وثالثة ورابعة .

وفي موكب من القطاط يصل إلى محب ، ويبيده قرطاس فارغ مقلوب ، يحتفظ به لامراته ، برهانا .

والغريب العجيب أن امراته لم تقلع أبدا عن تناول السمك المزعوم ، لعل منظر القرطاس الفارغ المقلوب ، كان يستولى على لبها ، بل ربما الفاظ التقرير والتوبيخ التي تريد أن تخرج منها .

ويوم مات عم عبده الساييس ، ترك العربية عند منزل الترعة ، وقد نضدت ألوانها على آخر سنجة . نسق الباقة ، وأقلع بلا رجعة .

حل المسألة ، فلا شيء سوى تغيير حمار العربية .

سقط من طوله بين يدي عربية الجزر ، وهو يهم بدفعها .

يومها لم تُصع امراته هانم وقتا ، كأنه نداء خفى ، وربما كانت منومة .

لم تكد تنتهى من طقوس الدفن ، حتى أسرع دون حساب ، إلى عربية الجزر المنتظرة ، تواجه عريشها ، وتقبض بيدين من حديد على يديها ، لتدفع .

لحظتها نزل عليها سهم الله ، غطست في بحر الصمت .. غرق فيه لسانها  
السايب ولم يطفُ .

امتدت يدها في جيب العربة أمامها ، إلى المنديل المحلاوى المشغول  
بالحناء ، تتعمم به مفرودا ، وطرفه ينسدل على سفح قفاها .

يومها سارت العربة بها في مدارها ، تعرفها الطريق من قرية إلى قرية ،  
والنداء السروى الشجى الرخيم ، الذى يرطب جوف من يسمعه ، يفتح لها  
طريقها ، ولم تعد إلى بيتها إلا بعد أن جبرت .

كانت الحارة ساعة الحوار الليلي ، تستيقظ لتترحم عليه ، وترصد دقائق  
ما يحدث من بعده .

وأولت الحارة اهتماما خاصا بعدد الأرغفة المشتراة ، وما ينتابها في الطريق .

حوار كان يدور بينها وبين هانم كبرى بناتها ، وبالكلمات المدونة في لوح هذه  
العائلة المحفوظ ، هانم خليفتها على دكانة الخضر والفاكهة .

تعود إلى محب ليلا ، ولا تكاد تتعدى ساقية العفاريت في مدخل محب ، إلا  
وقد شمطت ١٤ رغيفا .

وتدخل محبا ، وخلفها موكب القطط نفسه ، إلا أن القرطاس الفارغ المقلوب ،  
كان يبقى معدولا .

## بِير الصَّهت

( ١ )

فى نهاية يوم من أيام بليدة بطيئة ، لايجد فيها من يأجره ، لم يبيئت عليه عبده عواجة ، ليخرج مع الخارجين إلى الغاب فى البحيرة يحشونه ، ولا مع المشؤنين ومطهرى الترعى خلال هذه السُدَّة الشتوية<sup>(١)</sup> اللعينة ، ولم يطفح مجرور فى طلب نرجه .

الشرشرة لا تغادر يده أبدا ، وعند النوم يكمم أسنانها بطاقيته ، هى امتداد يده التى تحش له القروش العصية .

الشرشرة لم ترضى العمل منذ جمعة<sup>(٢)</sup> كاملة ، وكانون البيت لم يخرج دخنة تدمع عينا .

فى أصيل ذلك اليوم ، شحذ من جاره إبراهيم العاصى شلبا<sup>(٣)</sup> ، ونزل الماء الضحل ، وفى أعقاب الغروب ، وحدود المعالم تذوب ، وقعت له سمكة من نوع الحمار ، ملء العين واليد ، تربت فى غفلة ، وأفلتت من كل الشباك ، لتكون من نصيبه .

---

( ١ ) الفترة التى يمنع فيها ماء النيل من الجريان فى الترعى والقنوات فتظهر ، وهى فى الشتاء حين تقل حاجة النبات إلى الماء .

( ٢ ) أسبوع بلغة محب .

( ٣ ) كيس طويل ، واسع من شبك الصيد ثبتت فوهته فى طوق من خيزران ، يحركه الصيد جرفا فى الماء الضحل ، حيث القراميط والشيلاان والاحتش والحمير .



إبراهيم جائع ، وبيته يتضور . يستأهلها .

فى سوسة قفاها غرز إصبعيه الحديديتين ، ومضى مزقلا إلى ساحة القهوة ،  
والشرشرة الغارزة أسنانها فى قبة الجلاب تتطوح ، ومكان شلاطة السمك جلس  
بها .

امتدت إليها أيدى الرجال ، إلى الخيشوم تفتحه ، أحمر . ومن طرف رأسها  
تحملها أفقيا ، جسمها متماسك ، لاتزال فيها الروح . وإلى بطنها تمتد الإبهام  
والسبابة تفحصان : جرى إيه يا إبراهيم ، دى راعية<sup>(٤)</sup> راعية يا حبيبى .

ساموها جميعا ، ولم يزدوا عن الستين فضة ، لم يتزحزح عنها أحد ، ولم  
يتنازل هو عن أم قرشين صحيحة ، وتولت عنه القرية ، وألسنتها كالمبارد تهرى  
بدنه .

، وحملها ومضى .

وحيثما هل على باب البيت ، زعق على امراته كالغالب : بت يا فطومة يا بت ،  
قوى فزى أوقدى النار .

ومن فوق العتبة فزت حين لمحت الصيد الثمين ، أطلقت زغرودة ، سحبت  
النسوان من قعور البيوت ، وامتلات الحارة بالزغاريد الوافدة تزف حمار السمك .  
وانفض المولد ، وعلى الكيب كوع<sup>(٥)</sup> إبراهيم ، والأولاد حول النار يحومون ،  
ويخرجمون .

وتوسطت السمكة المشوية الكيب ، وحولها إبراهيم والأولاد حرسا خاصا ،  
عيونهم مشدودة إليها بحبال من زرد .

وخرجت الولية تأتى برغيفين سلفة .

كالبرق الراعد ، انقضت قطة ، انشقت عنها الأرض .

فى ومضة برؤمتها حملتها .

---

( ٤ ) اى رعت الطين .

( ٥ ) استلقى على جنبه ، معتمدا كوعه ، والكوع فى العامية المصرية هو المرفق ، وفى  
الفصحى طرف الزند الذى يلى الإبهام .

أمام حبة عينه حدث .

لم تخلف إلا قشرة فى حجم أم قرشين ، التصقت بقعر الصحن الصاج  
المقشور .

اندفع إلى الشارع مطلقا صرخة ، ارتدت فيها اللغة إلى أصوات بدائية .  
أطلت الحارة ، عادت فطومة ، رقت بالصوت ، والنسوان على العتب يصوتن  
كالغريان ، قبل أن يعرفن السبب .

وكان ليل .

وفى الصبح خرج إبراهيم الكودية إلى الناس ، ولسانه غاطس فى بير من  
الصمت .

انخرس .

تركه الكبار ليتسلمه الصغار .

وحينما ازدادت وطأتهم ، تغير وضع الشرشرة ، فقد أمسكها من يدها بدل  
طرفها .

لحظتئذ أدرك الصغار أن الأمر جد لا هزل فيه ، فانفردوا عنه من الفور ، ولم  
يفكروا قط فى الرجوع إليه .

## ( ٢ )

من يومها أحست القرية بوطأة القطار عليها ، فصار كل بيت يدخله سمك ،  
ينتقى منه شرة صغيرة جدا ، تلقى فى خزانة<sup>(٦)</sup> بابها موارب ، ووراعها بالضرورة  
تنقلت قطعة ، يغلق عليها ، وبعضا وقفص منكس ، يكفأ عليها ، ثم تفرغ فى  
زكية .

وتبدأ مسيرة التيه بعيدا ، إلى الضفة الغربية لبحر النيل ، حيث تطلق حرة  
لكن غريبة .

---

( ٦ ) غرفة داخلية لاشبك لها .

كانوا يتجشمون الطريق الطويل جدا إلى الغرب ، ولم يقبلوا قط أن يلقوا  
بالزكية دقائق في قاع مصرف الخشبة ، تزهق فيها أرواحها السبع .

### ( ٣ )

الكلوب يتوسط صحن قهوة يوسف ، سهران يشخر ، يرتفع ضوءه بالشهيق ،  
وينخفض بالزفير « والقمر في الشارع يزدهى في السماء ، يمر السحاب المتناثر  
فيخفت ويمضى فيرتفع ويظهر » .

تحت الكلوب اكتمل العقد يهرطون ، وكلما انحسر الضوء قلت الحصيلة ،  
واشرابت الأذان ، ولمعت الأعين في الظلام خلف الكلام .

إبراهيم الكودية على الدكة جالس ، ساقه اليمنى الطويلة قائمة على الحافة ،  
ويده فوقها مطبقة إلى الأرض ، وفكه الضخم الملوح جزء من صدره ، والهيكل  
المترامي غارق في نوم عبوس ، عزرائيل غاف .

جهاز الراديو الوحيد في محب يهرط ، وهو يقطع الرحلة اليومية إلى كل  
إذاعات العالم المتحدثة بالعربية ، حتى حفظها صما ، وأمسى لو لم تمتد إلى زره  
يد في الموعد ، ينتقل من نفسه مهرولا ، ضارطا كحمير التتريب حين تُزْرَبُ<sup>(٧)</sup> .

ارتفع شخير إبراهيم فجأة ، في مقطع منفعل أسكت الحلقة ، اندارت إليه  
العيون ، وانفشخت الأشداق عن ضحك مكتوم .

- أنتو عارفين إبراهيم بيحلم بيايه ؟ بالسمة يا ولداه ، بيقول للقطعة بس .  
السمة طالعة من نضره ، من نافوخه .  
- بس يا قطعة .

وارتفع الشخير فجأة ، متقطعا كالقصف .  
- قوم عمر المدفع وأطلق ، للحكومة توديك في داهية .  
- المدفع يا إبراهيم لتروح في أبونكة .  
وقفز إبراهيم على حيله قائما .

---

( ٧ ) أي تربع جلرية ضاربة بقوائمها في كل اتجاه .



## ( ٤ )

هو مدفع المدينة ، ينصب فى رمضان على بحر النيل ، وإبراهيم أيامها كان فى الرديف<sup>(٨)</sup> ومهمته إطلاق هذا المدفع . أربع عبوات فى اليوم ، يتسلمها عهدة مستهلكة ، فى السحور مدفعان ، وعند الظهر دائما واحد لضبط الوقت ، ثم لحظة الإفطار .

وفى سحر أطلق إبراهيم مدفع السحور ، وعُسل إلى جوار المدفع حتى يحين موعد الإمساك ، فجرفته التعسيلة إلى أن أيقظه الشارع فى الضحى ، وعبوة الإمساك بين يديه لم تطلق .

قام مذعورا كالذئب الذى طلع عليه النهار ، لا يرى من العالم إلا هذه المصيبة بين يديه ، جسم الجريمة التى ارتكبها فى حق الحكومة ، ذلك الصوت العهدة الذى لم يطلق .

ومن الفور قام إلى المدفع يعمره ، وأطلق .

وكالوز وقفت المدينة على رجل واحدة ، وانضاف الحادث إلى رصيد فولكلور المدينة الفك .

## ( ٥ )

ألقى إبراهيم الكودية نظرة بلهاء على الحلقة الضاحكة ، وعاد إلى دكته ، وقد نقل فكه الملووح من الشمال إلى اليمين . وهرب إلى النوم يغط فى بحوره . ماعت قطة .

وفى كسل وعشم ، حك بجسمها الساق النائمة .

فز إبراهيم على حيله ، وقد تقعر صدره وعجزه .

فى لمح البرق ، ارتفعت يده بالشرشرة ، وهوت وقد انغرزت فى ظهرها .

---

( ٨ ) الاحتياط بعد قضاء مدة تجنيده .

بالمقلوب عوت قافزة من فوق الحائط الذى فى ارتفاع قامتين ، والشرشرة  
بحدة فوق ظهرها تتذبذب .

الصمت المخلخل .. حط على الكلوب والقمر والضفادع وكشافات القطط التى  
تضيق الخناق على السمك فى أحواض الرز .

الصمت الصخرى المكشر ، والمرتد إلى وجوه الحلقة داخل القهوة .

وضحكة خشنة ثقيلة بلهاء شوهاء تهشم .

لأول مرة منذ الحادث يخرج منه صوت .

والكلوب يأخذ شهيقا .

- حمد الله ع السلامة يا أبوخليل يا شرشرة .

## حكمة يطارد عزرائيل

إذا خلع عليه أحدهم حذاء ، فتح بوزه لأصابع قدمه شرفة تطل منها ، وصلة  
رحم تربطها بالأرض الأم .

الجسر الضيق خاو أمامه ، الشمس تسبح النافوخ ، لا عرق لأنه جف حتى  
تقعد ، مضى مفلوت العيار ، يكلم نفسه في حوار حام يشترك فيه الرأس  
والأطراف .

- بقي يعنى الخلايق دى كلها ، ومفيش ولا زبون يخزى عين الشيطان ؟ يعنى  
حبكت ؟ إجت لحد عندك وزنجرت<sup>(١)</sup> ، لغاية ماجنرت<sup>(١)</sup> ؟ حكمت عليك يا  
حكمة ؟ !

وتزوم بطنه بصوت مسموع .

- سامعة يا شملولة ؟

وأصابع قدمه تغترف من تراب الجسر ، وهو يمشى من الذاكرة .

- رقعة صوت لأبوالمعاطي ، أشق هدومي ؟

---

( ١ ) زنجر وجنزر مادة واحدة من باب تنقلات الحروف المعروفة في العربية ، بمعنى  
صدىء ، وإن غلبت الأولى في محب على التوقف تمامًا والجُران ، والصداء يمنع  
الحركة عن المفصلة ، والآخرى تخصصت في الصدا ذاته دون المجاز .



وترتفع يده فى الهواء فى حركة هستيرية ، ورجله فى الاتجاه الآخر كالجمل حين يهبع .. وبكل عزمه تنزل كفه على صدغ فترن . هاهما .

لحظتها وبجذائه تماما ، كان شيخ البلد شخصا مارا لقضاء . كتم الرنة بيده ، ثم تلفت ، فلما لم يجد أحدا ، لم شمل وقاره ، ومضى دون أن ينبس .

نَعَب غراب إلى يساره فى سماء مرش النخيل ، جفَل وتطلع إلى الأفق : يا فرج الله . توقف .

ثم يسلم نفسه كالعادة ، كلما ضاق عليه الخناق ، إلى طريقه المحفوظ ، يصل إلى العمران ، وإلى دكانة الشيخ بروة يتجه ، يواجه مخروط الحناء ، لم يחדش ، امتدت يده تحفن ، وترش المخروط نفسه بالحناء تيمنا ، كما يرش رأس الميت فى تربته .

وإلى القيقاب العالى الضخم ، يمد إصبعه راسما على ترابه المتراكم ، الكلمة الوحيدة التى تعلم كتابتها « عزرائيل » تيمنا .

من غُسل إلى غسل ، ماكنتش ملاحق ، والكوز الذى جف حلقه ، وتكشففت شفته ، يغمض قبضته بعنف .. واللوفة التى تقدمت .

- الكوز ، اللوفة ، القيقاب ، ميت مرة كانوا بتوعى ملكى : امتى أرجعكم للشيخ بروة بنص التمن ؟ ولا فى الأحلام .

يرسو نظره على كرش الشيخ ، متحاشيا وجهه .

- دا الغراب لسه زاعق فوق راسى .

..... -

- دا صوت الغراب ما يخيبش .

..... -

واندفع خارجا ، وأذانه مقرونة إلى كل نائمة تصدر من شباك أو شراعة باب ، وعيناه صاحيتان على الألوان التى تمشى معه فى الشارع ، الأسود كله كالح ، أكلته الشمس ، ولم تترك فى أرضه إلا لون التراب .  
لدى ورشة قنير يتوقف .

- حكمة ، هو عزرائيل لسه حاطط لك العقدة فى المنشار ؟

- ادينى .. قرش .

- دا عاطيك خازوق لكن مغرّى .

- خد نص قرش أهو ، قرشك تعبان .

- باقول لك قرش يا بنى آدم .  
ويعلق صوت ماض فى الطريق .  
- اسمع كلامه أحسن لك ، مسيرك تقع تحت إيده ، وداك الساعة يبقى  
يتوصى بك فى خرجتك .  
يندفع حكمة هاربا من المساومة ، التى تقلب موازينه أكثر مما هى مقلوبة ،  
إلى المستشفى ، بمجرد أن تلمحه دكة التمرجية على البوابة تتزاغد .  
- له حق عزرائيل ما يهويش ، دى البلد مية جاهزة .  
- أوعى يا حكمة يا خويا اسمى يورد على لسانك قدامه .  
- دا ساعة ما يقع زبون ، حنجيك من تحت طقاطيق الأرض .  
وبآخر رمق يدور إلى ظهر المستشفى حيث المشرحة ، إلا أن بطانة أنفه لم  
تتحرش بها رائحة فورمالين حديثة ، أحب الروائح إليه قاطبة .  
أما من خرم إبرة فى هذا الوجود المهيّب ؟ !  
وتطلع إلى فوق ، المصباح يعلو من حائط المشرحة ، يرسل نوره الأصفر  
المغبر من خلال غلالة العنكبوت والهاموش . أحس برعدة فانداز لينصرف ، لمح  
النعش إلى جوار الباب على حافة الطريق ، وغطاؤه حان عليه .  
أمسك بيد النعش ، فينك ، كيفك ؟ زمان يا صاحبي .  
سمع النعش يدعوه ، وينزله فى عينه ، فرّت من عينه دمة ، ولم يكذب له  
خبرا .  
صعد إلى النعش وتمدد ، أحس بلسعة برد تعلو لسعة الجوع ، امتدت يده  
إلى الغطاء يحكمه فوقه ، تيمنا ، لعله يفك النعش ، ذكر عزرائيل ومعاونيه منكرا  
ونكيرا ، تزوم معدته ، بقى ودتك اللى بتسمع دبة النملة ، ما سمعتش عصافير  
بطنى ؟  
وتسترخى الانقباضة ، وينجرف إلى بير النعاس .  
فى السحر تطرق أذنه اصوات على الطريق ، فرك عينيه ، وحينما أصبح  
الصوت فى محاذاته ، رفع غطاء النعش وسأل : إلا الساعة كام ؟  
خرسوا ، قفزوا المصرف الواسع العريض المواجه .  
- داتكو غرقة ما تطفم .  
وأرخی عليه جفن النعش .

## ( ٢ )

كطلقة المدفع اندفع فى الفضاء العالى غطاء النعش . صُوات من محب القرية  
القريب يشق سماء الظهيرة ، اندفع حكمة قبل أن يكسر غطاء النعش المصباح  
قرب سطح المشرحة وينزل محطما ، قزح المصرف الذى قزحه الخائفون فى  
الفجر ، ومن قلب غيطان الرز والقنوات مضى فى خط مستقيم ، التقطت أذنه :  
« الجمل برك على أبو ماضى » ، تكسرت بعض مجاديفه ، بعد لحظات كان على  
الباب . تلفت ليدرك الموقف .

لم يقم الجمل عنه إلا بعد أن بططه كقرص الجلة .  
قرص جلة !

## ( ٣ )

كم نصحوه .

كان المرحوم يكمه لينفرد به حينما تضيق عليه ، وحينما يركبه الزنآن ، كان  
يضر به بكفر ، كان يفش فيه غله وغلبه ، حتى سموا الجمل صابرا .

كان رجه الله يوقن أن الجمل يحوش له ويكوم ، ويوقن أكثر أن الجمل غدار  
بمن به يغدر ، ويوقن أكثر وأكثر أنه قدره ، كلما ابتعد عنه اجتذبه إليه ، ولم يكن  
يقلع .

وفى أيامه الأخيرة ، كان على لسانه أن الجمل حباله طويلة ، وعنده صبر  
أيوب ، وأن كل صبور غدار .

فى هجيرة اليوم الموعود ، كان أبو ماضى الجمال ، يتقنذ فى ركن من المناخ  
مظلم .

قطع صابر القيد وهو يضرب بالقلة ، وهول إليه وهو يضرب بالقلة ، وبرك عليه  
وهو يضرب بالقلة ، ولم يقم عنه إلا بعد أن هرسه وبططه .

معذور صابر ، ومعذور أبو ماضى ، كان مسمارا والشاكوش يدفعه فى  
الخشب .



## ( ٤ )

داخل باب القاعة التى ينداح فى ركنها أبو ماضى هريسة ، أمسك حكمة بخناقهما معا ، صاح وهو يهزهما هزا عنيفا ..

كنتو فين ؟ كل دى كانت غيبة ؟ مفيش عدل ولا أصول ؟  
وتهدا قبضتاه .

- أنا قلت عزرائيل قبض روحكم ، لكن برضه لا . مين اللى حيجهزكم ، ويلقنكم غيرى واللا زى ؟  
ترتخى يداه .

- وبعد الغيبة الطويلة ، موش حرام نتقابل على حدة هريسة ، لا تتغسل ولا تتكفن ، ولا تنفع ولا تشفع ؟ ! أنتو جايين تحاسبوا مين ؟ تعالوا حاسبونى أنا ، افتح الدفتر وطلع المرزبة منك له .

وارتفع صوته مع يديه تمسكان بخناقهما ثانية .

- مسخرة ولعب عيال ، يكون فى علمكم ، انت ياسى « منكر » ، وانت لآخر ياسى « نكير » ، يا تقبضونى ، يا تقبضوا رو ..... .

لم يكمل ، ارتخت يداه فجأة ، تراجع وعيناه تخرجان أمامه ، وقد فتح ذراعيه على مصراعيهما .

- عزرائيل شخصيا ؟ ! خرّ على ركبتيه ، موش حرام عليك تسبب الخلق تجعلص وتدود بالحقيا ؟ نشفت ريقى يا شيخ ، وطلعت رو ... وقطم ..  
هب واقفا على حيله ، ارتجف .. سابت ركبتاه . جاى ت ..... .

والناس من الخارج حول باب المُنَاخ : أبصارهم شاخصة ، والطير فوق رؤوسهم .

## حديث الدولار

وقف أمام دولابه يكلمه ، بل يقضى معه مصلحة .  
- يا دولار ، اسمعنى جيدا ، أنا لا أعرف اللت والعجن ، كلمة ورد غطاها ،  
خمسون جنيها سلفة منك اقضى بها حاجة ، وابن آدم لا يستغنى ، والحساب  
يَرْنَى<sup>(١)</sup> ، خمسون جنيها يعنى خمسين جنيها ، يضاف إليها حسب الاتفاق  
السرى المبرم بيننا المائة خمسون ، ومن يأكل على ضرسه يا صاحبي ينفع  
نفسه . لاتخف ، فأنا رجل مضمون ، كلمتى أضمن من الشهر العقارى ، ثم إنك  
جربتني من قبل ، هل تذكر ؟ أم أنت كالقطة تأكل وتنكر ؟  
ويضع المفتاح فى ثقبه .

- أنا أعرف ما تقول لعقل بالك ، لأنك دولابى الذى صنعه بيدي : صحيح أن  
السلف تلف ، والرد خسارة . وإن ابن آدم على كف عفريت ، ولكن من منا يا  
سيدي يضمن عمره ؟ !

ويدير المفتاح الدورة الأولى .

- آخر مرة كانت عشرة جنيها ، والامارة أنتى أرجعتها خمسة عشر جنيها ،  
ثلاث ورقات خارجة بشوكتها من الرزمة . يعنى زادت النصف ، وأنا أعلم جيدا

---

(١) أى فورى ، لو مسوَجِر على حد تعبير محب أيضا .

أنك لا تُخرج إلا بالربا ، طبقا للسيم الذى بيننا ، خمسون يا حضرة ترد خمسة وسبعين ، وكلمتى يا عزيزى لاتنزل الأرض .. إيه ؟  
ويدير المفتاح الدورة الثانية .

- ولكى تطمئن ، وتضع بطنك فى بطيخة صيفية ، كتبت لك وصلا بالمبلغ ، فلا أحد يضمن الموت من الحياة ، إلا أن الوصل بالمبلغ الأصيل فقط ، والزيادة ( وهنا يخفض من صوته ) لأنها ربا لاتكتب ، مثل خلو الرجل ووضع اليد ، وبلى الريق والدخان والحُلوان .. هل اقتنعت ؟ ما قولك يا صديقى ؟ .

ويرفع يده عن باب الدولار ، فيرتد المصراعان متنفسين ، فيرتاح ويشرق وجهه ، ثم يقول وهو يلوح بالورقة :

- هذه هى الكمبيالة أم خمسين ، أسمع صوتها وهى تخرفش ؟ أضعها لك مكان الخمسين ، خذ وهات ، وانبسط يا عم وزقطط ، هل من أحد قدك يا سيدى ؟ كالغراخ رزقك تحت رجلك .

ويخنصره يشد المقبض ، فينفتح الدولار على مصراعيه .



## شجاع

سكير ، يشرب السبرتو الملتهب ، قد يهديه أهل الغاب ماء الجوزة ، ليمزج به السبرتو .

ثم يمشى يتطوح ، وحوله الأولاد صامتين يتطوحون .

كل يوم تحمله رجلاه ، اللتان عليهما حمله ، إلى المدينة . إن هما خذلتاه - وغالبا ما تفعلان - حرروا له محضر تحر .

إلى أن وصل فى أصيل بموكب الصبية ، فوقفت المدينة على رجل ، وأقلعوا عن تحرير المحاضر ، إذ صار من معالم المدينة السياحية .

الحياة فى نظر « شجاع » سبرتو ، والسبرتو لا يفرق فى مسألة التخشية ، بين داخلها والخارج .. تحر أو إفراج ، سيان .

نخاعه دائما يزعق فى يافوخه .. يرخى ، يوتر حبل الأعصاب .

والأجراس تصل لتصلصل فى اليافوخ : « اسقونى اسقونى » . لاتسكت عنه حتى يشرب .

حن عليه أحدهم يوما . من يده سحبه ، حمّاه ، خلع عليه جلبابا أبيض نظيفا ، وجلس يسامره . يوصيه ، يوشى غده .

وجاع فطلب طعاما .

أتاه بسلطانية ملوخية ورغيفين .

بين يديه أمسك بالسلطانية ، نظر إليها .  
رفعها إلى فمه .

تحت ذقنه توقف .

وفوق أعلى صدره تماما .

صحبها ..

وانفرجت أساريره .

فقد عاد شجاع إلى شجاع .

## أنا مين ؟

يكاد يمسك بخيوط توازنه ، قدماه تبصران الطريق ، إلا أن الطريق يتطوح به ، ثقل رأسه وانحنى ، يكتشف لسانه خارجا ، يضرب به أن طظ ، ياخى طظين .

يفيق ويصلب عوده ، يندفع وهو يتفخ وعيناه تبرقان فى الظلام ، على القنطرة الفاصلة بين محب والمدينة ، يستأنف التطوح ، الله ، رجعنا ؟ أنت بتشنكلينى ؟ ما تطيريش الشوية السبرتو من قمع نافوخى .

يعد يده فى جوف الليل ، مندفعاً بحكم قوة الذاكرة فى قدميه ، مجتازاً القنطرة ، منحرفاً إلى الشمال ، حتى يمسك بحديد شبك ضريح « المظلوم » . كتر خيرك يا عمى يا مظلوم ، دالمظلوم برضه للمظلوم .

يعتدل ليتأمل على بعد خطوات ضريح « الظالم » ، والضريحان على مدخل محب يتواجهان .

— أدي الظالم ، وأدي المظلوم ، قصاص بعض ، الظالم أبو كرش بينش ، وسيدى المظلوم مقام ومزار .. ومع كده الظلم مالوش آخر ، أنا مالى يا ختى ، هو أنا اللى عليه تنظيم الكون ؟ !

يطأ بقدمه الطريق ويفعصه ، تضيق بصااستاه وتتحددان . يندفع فيعود إلى الترنج .

— الله يا معجل ما تزعل ! هو يعنى الواحد مايقولشى رأييه ؟ اسمع إما أقول لك ، حاكم احنا الاثنين ما تتخيرش ، بننداس ، براطيش وشرفك . يترنج أكثر



منحرفا إلى الشمال ، يمسك بفرع من الزيتون الراكنة في الطريق منذ الأزل .  
يتطوح به ، الله هو كله سايب على نفسه ، أه يا ناشفة يا مقلحفة ، يا معصصة  
با مصوصة . أه يا عانس ، يا بايره . بقى يعنى ما تطرحيليش زتونتين أمز  
بهم ؟ ! يخص عليك . اسفخس .

يستسلم للطريق فى نصف دائرة .

- أهلا هو انت الداير المسوى الهوايل ؟ إنت المسكون ؟ بخ ، طب دق ، وهو  
يخبط بكفه شق الفتحة التى فى الحائط الدائر ، يطل منها شبح الساقية  
السوداء : دورى دورى واروى لى . تروى لى إيه ؟ أه صحيح تروى لى إيه ؟ هو  
أنا عندى طين يا ساقية ؟ واللأ أقول لك ، باين على بادن فى مالطة .

يندار إلى الطريق ، يرى الليل والسكون ، يرفع سبابته إلى شفتيه : هُس .  
ينحدر مع الطريق حتى قاع الدحديرة ، أه إجيئا للجد ، هو لازم نطلع اللى  
نزلناه ؟ مفيش شكك أبدا ؟ !

يصعد ناظرا إلى فوق وهو منحن ، يا حضرة السبرتو ، يا منقوع الصرم ،  
حتقدر تقوم بعريشى ، وتطلع بى المطلع دهر ؟ اشمعنى الميه بتطلع فوق فوق  
فوق للنخلة العون ؟ !

يختل توازنه ، فيمسك بالأرض كالسحلية مع السقف ، عند نهاية الصعود ،  
يرفع يده اليمين ، موش هى دى اليمين ؟ أوعى تكونى الشمال وبتضحكى على  
دقنى ؟ ينحرف إلى اليمين : أه هو . يحسس على إفريز العربة المعشقة فى  
حائط بيته مع شباكه . يحميك لى ، يشد السقاطة ، يدخل وبهدوء يغلّق الباب .

فى الفناء يتسحب حتى يصل إلى الحمار ، يطبطب على كفله ، يجرى يده على  
ظهره ، يتوقف الحمار تماما عن قرش العليق . يسرع برفع يده عنه ، فى أذنه  
يوشوشه : بلاش ، اعمل معروف اقرش ، حتفضحنى ، اقرش اقرش .. يلتفت  
إليه الحمار زاغرا . أنا ف عرضك اقرش لتصحى السلعو . يتعلق برقبتة ، ويدعك  
له منابت فكه ، يتنهد فى استكانة ولذة ، يلوى رأسه ويحك جبهته ، تعلو تنهيدة  
طويلة أسيانة ، يا حبيبى يا حسنين . أنا أخوك حسن يا حسنين ، إحنا مالناش  
غير بعض ، مالناش غيرك يا حسنين ، أنت كبير العيلة ، أنت اللى فى جيبك  
المصروف يا حسنين ، معلش كلك نظر برضه ، يوم فول وبقية الجمعة قشر .  
وانت سيد العارفين يا حسنين ، يوم غسل وبقية ليّام بصل . لكن القشر برضه  
كان للفول ستر وغطا ، ثم إن برضه ما أخبش عليك ، فول اليومين دول كله  
مسوس يا حسنين ، وأخاف موت على صحتك من السوس ، يا حبيبى يا غالى .

على رأسه يحسس ، يرفع عنه يده ، ببطء يطاطى حسنين رأسه إلى الطوالة ،  
يستأنف القرش بهداوة .

على كفله يخبط ، يفتح باب الحجرة ، يتجه رأسا إلى الشباك ، يمد يده إلى  
أعلى يصافح يد العربة الداخلة من بين حديد الشباك ، يصافح اليد بحرارة :  
إحنا مالناش غير بعض يا حسنية .. حسن وحسنية وحسنين . يعيشوا لبعض ،  
حسنية أركبها بالنهار . والسلعو تركبني بالليل ويا عفاريت السبرتو .

يلتفت حيث ترقد امرأته مع العيال ، يصيح ديك ، يندفع خارجا وهو يتفخ ،  
مطيرا لطشة من رصيد السبرتو في رأسه .

إلى حائط قرَم ممتد في مواجهة البيت في الجانب الآخر من الطريق يتجه  
رأسا ، والراحتان مرفوعتان كأنه أمام ضريح .

على الحائط يمسح بيديه ، ثم بقبضته يضربه ، ثم باستدرار وتحنان وتوسل  
يسأله :

أنا مين يا حيطة زنو؟

قولى لى أنا مين؟

ردى علىّ يا حيطة .

أنا مين؟

يضرب رأسه في الحائط ، ينخرط في البكاء .

أنا مين يا حيطة زنو؟

يصيح ديك ، الصباح أطول وأروق من الصباح الأول . يمر أول خارج إلى  
الصلاة في مسجد النعمان ، عبدالسلام هلالى صاحب مكتة الطحين .

أنا مين يا حيطة زنو؟

- حسبنا الله ونعم الوكيل !

وينأى عبدالسلام هلالى بنفسه ويملايسه عن النجس ، إلى أقصى الجانب  
الآخر من الطريق ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

ينفتح الباب العريض الذى يتوسط حيطة زنو ، مرتفعا فوق القامات ، اكتاف  
خيال مائة عملاق .

- بهدوء ينفتح ، وبهدوء من بين النخلات العجفاوات السوامق ، يخرج عم آدم  
الأعجف السامق ، ويده ترتفع بمقود جملة الوديع جدا والمطيع « صابر » نفسه ،  
الذى ببط صاحب الأول أبا ماضى .

الراسان متجاوران فى حجم الدومة ، ومن فوق تطل رؤوس النخيل فى حجم  
الدوم ، يرتفع الصوت بلوعة فى صلاة فجرية كاسرة .

أنا مين يا حيطه زنو؟

حسن عمران ؟

ومين أنت يا حسن يا عمران ؟ !

أنت مين ؟

أنا مين يا حيطه ؟

يضرب رأسه فى الحائط ، وينخرط فى بكاء مر .

انطفى يا حيطه .

قبل ما أموت يا حيطه .

حاموت ناقص عمر يا حيطه .

حاطق أموت يا حيطه .

أنا مين يا حيطه زنو؟

ويخرج آدم بصحبة صابر من مناخهما ، مسلمين أقدامهما إلى طريق

البحيرة ، حيث مسقط رأس الغاب الريحى ، جنة محب وجحيما .

أنا مين يا حيطه زنو؟



« ﴿ » حیات

## مشروع نهيق

فى إيقاع صاجات العرقسوس ، من حُداء حوافره على الأرض الصُّلدة ،  
يركض الحمار الرشيق بصاحبه الأكرش .  
والطريق يفاجئه بصولة ، مجرد زيلة .  
يختل الإيقاع ، من أقدامه والشخاليل .  
يزرجن ويحرن .  
لا يثنيه ضرب أو سَكُ<sup>(١)</sup> ، ولا وكز<sup>(٢)</sup> أو لكز<sup>(٣)</sup> .  
رأسه من بازلت ، وإن خلعوا عليه مئذنة .  
فقط بالشهيق فى شره المغناطيس .  
يجذب الزيلة ، إلى عَنان السماء ، بين شفته وخطمه .  
جابدا النفس تلو النفس .  
يختل التوازن ، ينكبّ الأكرش مترجرجا .  
فى صوت الموج المكتوم ، داخل تجاوىف الصخور .  
هى تعميرة المزاج ، وحُلم اليقظة .  
وبالزيلة ينزل مفرغا حشده فى مشروع نهيق .

---

( ١ ) تعنى فى لغة محب شدة الضرب وموالة الإيذاء .  
( ٢ ) الضرب بجمع اليد على النَقْن .  
( ٣ ) الضرب بجمع اليد فى الصدر .

## الجاموسة والفراشة

كانت الجاموسة واقفة فى ظل أمها الجميزة ، كالتل تجتر ، راسخة كتمثال من بازلت .

الجاموسة التى يحلبونها ، ويجمعون روثها وقيدا وملاطا وسمادا ، ويتجرون فى ولدها ولحمها ، ويقسمونها بينهم حية أسهما ويثرون .

الجاموسة الأم ، الأصل والفصل ، تحرث الأرض ، وتسقى الزرع ، وتدرس الحب ، وتملا الضرع . صباح مساء يمتلىء الضرع .

كانت تقف بلا حركة ، اللهم إلا ضفيرتها ، ذيلها الذى يتحرك حركة نصف دائرية من أجل الذباب ، وحركة حلزونية مكتومة من أجل القراد ، المتوغل إلى منابت الحركة من مفاصل الأفخاذ ، الطفيليات الصفيفة الضارية التى تمتص الدماء ، والعلاقة لا حول لها إلا أن تنفخ ، ملء مراوحها وبربخى<sup>(١)</sup> أنفها .

وعلى طرف قرن الجاموسة فوق أعلى نقطة ، وكالطائرة الشراعية حطت فراشة ، وكانت أول الاستفتاح .

من موقعها الفريد ، وحركتها التى فرضتها عليها الجاموسة ، كما تفرض الكرة الأرضية علينا حركتها ، وقفت فى رشاقة تراقب .

أهى شاعرة ؟ أم ذات مزاج ؟ !

ومالبت أن حط على ظهر الأم ، الحكيم أبو قردان ، ثبتت حركته كأنه صنم ، وتوترت قائمتا الجاموسة الخلفيتان ، وانغرزتا فى الأرض .

قالت تستنجد به وتستحث ، وإن أخفت غرضها : يا حكيم ، أو تنتظر عزومة ؟

---

(١) البربخ هو البلوعة من الفخر .



رد الحكيم : إذن لم جئت ؟

وترفع ذيلها ، فينحدر متشبثا به ، وينقر ، وكل نقرة بعُصبة من الذباب الأزرق الجارح ، ومن تحته مستعمرة القُراد ذى الكلابيب .

وتحتها يحط هدهد ، وبين مخلفاتها يسدد النظرة وينقر ، والنقرة بدودة تنقوس فى منقاره المقوس .

قالت الجاموسة للهدد - وأبوقردان ينط إلى الفخذ الأخرى - معبرة عن سعادتها بالخلاص ، قالت كمن يتكلم من تحت فوطة الحلاق : من قدك يا عم ؟ مثل الفرخة رزقك تحت رجلك .

والتهم الحصيف الدودة قبل أن يفتح فمه برد : كلما ضاقت بنا أو علينا يا أم جئناك .

وعاد ينظر وينقر .

وانحسرت الجاموسة إلى عقل بالها تقول : صحيح الأحياء بعضهم لبعض ، ولكن السؤال العويص ، لم لم تقيدنى هذه المخلوقات الرقيقة بالسلب من أجل ضمان غذائها المفضل ؟ نفسى ومنى عينى أن أغمض وأفتح ، فأرى هذا الجلادى النائم فى ركن القش ، مقيدا بالسلبية التى يقيدنى بها .

قال لها أبو قردان مودعا : فُتْك بعافية .

وأطالت النظر فى وجد لم يخلُ من مس من حرمان ، إلى جناحيه يحملانه بيسر فى الفضاء الواسع الحر ، ثم أرجعت البصر إلى عقدة السلبية ، بمعصم يدها ، وإلى ساقية عنطوطة أمامها ، وغيطان الرز المترامية الغارقة فى الماء ، كل هذه البحيرات من ناف<sup>(٢)</sup> أعناقنا . وكظمت .

ولما قضت الفراشة من قرن الجاموسة وطرا ، سألتها تعبيرا عن مِنَّة وفرد أدب : أيزعجك الآن يا أماه أن أرحل ؟

رفعت الجاموسة نزعيتها إلى أعلى عُلَّيين ، وباهتمام وصدق ، قالت : إيه وهل كنت موجودة حتى ترحلى ؟ ! أنا كمان باقول إيه اللى كان وازن دماغى ؟

---

( ٢ ) هو الفُير ، أى الخشبة المعترضة فوق اعناق الماشية . لإدارة السلبية لو المحراث لو النورج .

## هذه هي المسألة

النخلة سامقة رشيقة ، فوق بلحها المخدد يحط غراب ، بين قدميه ينظر ، فى  
رشاقة يرفع منقاره إلى قرص الشمس الأحمر .

الغراب أنيق ، منطلون<sup>(١)</sup> وقميص من الرمادى ، والسترة من الأسود . ينحنى  
إلى بلحة بعينها ، من قمة مخروطها المقلوب ينقر ، تنخلع وتسقط ، يرفع منقاره  
وفى طرفه جزلة منها ، فى دُربة ورشاقة يرسلها فى الفضاء ، وبثقة يلقفها ،  
يزدردها ثم ينعب .

إلى منابت سعفة يحجل ، تغزغه سُلّاة : يزعق : « كواك كاك » . إلى سعفة  
مائلة يحجل .

والنخلة تقول له : ذنبك على جنبك ، ألم تر كل هذه الحراب المشرعة حول  
جمارى . هل عميت ؟ !

يقول الغراب : اللعنة ، كان على السلااة ، لو كانت على شىء من الحياء ، أن  
تتفادانى .

والنخلة تقصع ضحكة مجلجلة ، وهى تتمايل وسعفها يصطك ، ثم تقول :  
عندك حق ، السلااة العدوانية اقترفت فى حقك إنما .

يقول الغراب مزهوا : موش كده والنبي ؟ !

( ١ ) بلغة محب .

تقول النخلة : وعلى السلاعة من الفور أن تحتضنك وتبوس رأسك معذرة .  
صاح الغراب فى فزع : لا لا ، أنا فى عرضك .

تقول النخلة : عرضى ! الأصول عندنا يا سيد مرعية : أليس الثابت هو الذى يتفادى المتحرك ؟

صاح الغراب : بل المتحرك هو القادر وحده على التفادى ، هو الذى أتى برجليه . أنا المخطيء يا عمتى النخلة وستون مخطئا .

وعلى التصايح تنادى المَرَشُ (٢) . والأسرع كان قردا هرب يوما من صاحبه داود ، وعند آخر قحف توقف .

قال الغراب وقد انفثأت عنه نفخته الكذابة : رأيت المتحرك مثلى يرى الكل دون الجزء ، ولكنه أقصر عمرا ، أما الثوابت الرواسخ ، فترى الحركة فى الزمن .

تقول النخلة : ولكن الناس أسيادنا يا استاذ غراب ، أراهم ثابتين كالشجر ، مع إبتائهم كل أسباب الحركة ، يتفرجون منذ آلاف السنين على من يلعبهم على الشناكل ، وبأصحاب الشناكل أنفسهم يتناطحون فى صخب وجلبة .

سأل القرد : ولكن ياعمة ، أين هؤلاء الأسياد الثابتين كالشجر ؟

تقول النخلة : إنهم منحسرون منذ القدم إلى داخلهم مختبئون ، وبالجمع الأحمر ختموا على أبواب نفوسهم .

ومن تحت سألت جاموسة الجلادى وأذنفا فوق : إذن ما العمل معهم ؟

تقول العمة : شوفى يا ست . الواحد فى محب اثنان ، واحد حقيقى قابع فى داخله وقدس أقداسه ، مذعور لا يبرح ، وآخر بقناع ومهاود . يقول : « أى إهىء ، وهو يعنى « لا » .. هم كالقراميط مزفلطون لا يمسون .

ومن تحت النخلة يغنى القط داود ، وهو يلعب فأرا صاده : تعاندنى وياك ، تكايدنى وياك ، تلابطنى وياك ، تسهينى وتهجرنى ، أنا لست معاك .

ومن منابت ذيله ، يرسل الغراب شيئا .

---

( ٢ ) السلاعة يتجمع فيها النخل ، ويرشها ببلحه ، والأطفال مبكرين يشقون فيها البلح الساقط ، أى يجمعونه من الشتات .



والحمار يتطلع إلى رأس النخلة حالما : طالب من الله ، ولا يكثر على الله ، قبل أن أموت يا عمّة ، أن أركب شيخ الخفر شخصيا حمّاريا وأهزّ رجلّي ، ذلك البدين الرّسّخة ، الذى ينشلنى من صاحبى كلما قصد البندر<sup>(٣)</sup> . أقضى معه سحابة اليوم متضورا<sup>(٤)</sup> . اللهم - بحق جاه النبى - جوعه قبل أن تُيتمّ عياله . وحينما أتعب من الركوب ، أشغله فى التّريب<sup>(٥)</sup> . هل يكثر على الله ؟ أما من حل يا عمّة ، يخرجنا من هذه المُدْهَمَة<sup>(٦)</sup> ؟

تقول النخلة : طالما ظلوا فى حصنهم الحصين ، فلا أمل فى تغيير ، أو فى الحصول على حق منهم .

ويسألون جميعا : إذن كيف نخرجهم ؟

تقول النخلة : هذه هى المسألة .

---

( ٣ ) المركز ، وهو المدينة يتبعها قرى .

( ٤ ) متلويا صائحا من وجع الجوع والضرب معا .

( ٥ ) أى نقل السماد البلدى ونزح المجارى ، إلى الأرض الزراعية بالمزيلة .

( ٦ ) الصحراء لا علامة فيها ولا أثر .

## الحدق يفهم

حطت اليمامة على الصُفصافة ، وهى تلوّح بالتمرحنة فى تحية الصباح .  
وحطت الحمامة على الزيتونى المقابلة ، كأنما كانوا على موعد . ساد  
صمت ، إلا من ريح تحمل أصداء متكسرة لصرخات بشرية ، من سجن بظهر  
مدينة إلى جوار المشرحة ، يطل على محب .

قطعت اليمامة الصمت سارحة مع الصُفصافة : عجيب آدمى ، بهذا التعذيب  
لصراخ يركب ويهز رجله .

قالت الشجرة الراسية : أقلّى فبين يديك بكاء طويل .

أكملت اليمامة : ابن آدم ، أوتى اليد واللسان ، فابتدع السجن ، أبشع ما قام  
فى الأرض من بناء . يزج فيه باسم مقدساته كل من يخالفه ، حتى عمدة محب  
كتم يحول إليه كل من لم يدخل له من زور .

قالت الصُفصافة بهدونها : لو أننا نحن الطير والوحش والحشر والشجر ،  
تدبنا كما اهتموا إلى هذا السجن ، لدونا لنا بدماء التعذيب تاريخاً ، ولنبتت لنا  
، ظلام الزنازين ذاكرة تخزين ، وكانت لنا حضارة .

ثم عقت بين حفيف أوراقها : قصر ذيل منا نحن الزعر ، ألا يكون لنا سجن .

قالت اليمامة : يا شيخه ، الله الغنى عن مثل هذه الحضارة الدموية ، والقتل  
ين مما يجرى داخل هذه الجحور ، فليُغر وحش الوحوش سبحانه من الحياة .

قالت الصُفصافة وهى تهدد يمامتها : لا عليك ، عندهم أثر بدعة الواقعون من

قعر القفة ، يبدون فيه رأيهم فى كل ما يدور من عُمدهم وأمرائهم ، وهم  
« يحاسبون القاضى »<sup>(١)</sup> . والحدق يفهم .

سألت اليمامة : إلیٰ به ، يا منقوعة الحكمة .

روت الصفصافة : أثر فريد وإن بدأ يندثر ، يقول :

كنس الكناس

رش الرشاش

ضرب النفير

نزل الأمير<sup>(٢)</sup>

صاحت اليمامة وهى تخفق بجناحيها : الله يجازى شيطانهم . أهذا رأيهم فى  
أميرهم ؟ ! عفارم !

همست الصفصافة : هس . وشوشى فأذان الحمامة والزيتونة علينا مقرونة .

قالت اليمامة : يا شيخة حرام عليك ، إنهما رمز السلام .

صرخت الصفصافة بتلقائية : فشر ! إنه سلامهم هم يا عبيطة ، السلام  
الرسمى . أما اليمامة والصفصافة ، فهو السلام الشعبى .

عقبت اليمامة وهى ترفرف : دقى يا مزيكة .

---

( ١ ) تعبير شعبى معروف لمن يدخل بيت الراحة أو الأدب كما تقول محب .  
( ٢ ) مفاتيح رموز هذا الأثر تتضح إذا تأمل المرء ما يحدث له فى بيت الراحة .



## ثورة الغربان

من مرش النخيل ، وفى حذر شديد ، ترتفع ماسورة بندقية عوض قاتيلو ،  
وينطلق عيار ، ينبع فى إثره غراب ، تشق ولولته سماء النخيل ، ثم ينهد فى  
الأرض كتلة مكتومة .

وبالرغم من رائحة البارود التى يعرفها الغراب جيدا ، ويحذرها جدا ، إلا ان  
غرابا يردد النعيب ، يجيبه من بعيد غراب . ومن كل الأرجاء ثان وثالث وعاشر .  
كواك كواك كواك . وانفرشت السماء بالأجنحة السوداء ، وبقع الصدور  
الرمادية .

فاض بها الكيل .

والغربان بالمتات تتوافد ، والنعيب كالعديد فوق رؤوس النخيل ، والسعف  
تحت ثقلها يتأرجع ، والأجنحة السوداء العفية تضرب الهواء ، وترسل النعيب ،  
وتسقط البزاق .

غربان الشط على بكرة أبيها فى مؤتمر جنائزى ، فوق النخيل ذاتها ، دون  
اعتبار لصياد أو بندقية أو بارود .

وكلما اقترب الغروب ، ارتفعت حدة النعيب ، وحينما تغطس الشمس ، تنشز  
الأصوات وتختلط ، وتسقط إلى الأرض مديبة حادة ، ومتقاطعة متضاربة ،  
كتصويت النساء ساعة حمل الجثة .

ومع الشعاع الأولى لشمس اليوم الجديد . بدأ الهجوم .

الأسراب تنقض على تربيعة الذرة ، التى تجاور مسرح الجريمة ، التربيعة  
التي نصبوا فيها على الذرة ، الغراب الضحية خيال مآته ، يخيفون به الغربان .  
والغربان لم تعد تخاف .

سرب وراء سرب ، فى تنظيم وإصرار ، كواك كواك ، تلخلخ وتخلع فى غارة  
جوية مباغتة . دقائق والكيزان التى لاتزال حباتها لبانا<sup>(١)</sup> ، مملوخة وملقاة ،  
والأعواد عند أقدامها مائلة .

إلى حافة التربيعة اندفعت امرأة ، والرجل المفزع بنومه على حافة مرش  
النخيل ، والقرية فى لمحة ، النساء خلف المرأة ، والرجال خلف الرجل ، عيون  
تجحظ وتغور ، تجحظ وتغور .

وبعد أن لم يعد عود يحتضن كوزا ، ترتفع الغربان كلها فى طابور سريع  
لاتدرك العين مداه ، لتتنقض إلى الغراب خيال المآته .

غراب إثر غراب ، إلى الرباط الذى يثبته فى القصبة القائمة ، تُعمل مناقيرها ،  
تخلصه .

وقبل أن يسقط الشهيد إلى الأرض ، يلتقطه كبيرهم ، يرتفع به فى مناورة إلى  
أمام كراس السهم ، وخلفه الغربان تؤلف جسم السهم ، وهى تطلق النعيب  
الجنائزى الجليل .

حملوه بعد أن انتقموا له أمامه ، إلى حيث يجرون له طقوس الدفن . وعند آخر  
غراب فى التشكيل ، التقطت المرأة طرحتها السوداء ، تشدها من طرفيها ، تشد  
بها رأسها من قفاها ، وتشنشن ، وكل حركة تنتهى إلى اتجاه الغربان ، وهى  
تجأر : يا خراب بيتك يا جلادى<sup>(٢)</sup> .

والغربان فى جلال ترد : كواك كواك كواك .

- يا خراب بيتك يا جلادى .

- كواك كواك كواك .

---

( ١ ) لبنا إلا ان اللبن للضرع وحده . واللبن للثدى وغيره .

( ٢ ) زوجها صاحب تربيعة الذرة .

## حصان الملاحه

( ١ )

فى الأصيل والشمس خلف محب تماما ، مستغرقة فى تمشيط شعرها ،  
وإرساله من خلفها على كل امتداد الأفق الغربى ، تفلت من قبضتها جديلة ،  
تنطلق وراء كِسْف الغيوم المجنونة ، تطاردها متعدية حدود الغرب . وأقواس  
الطيف قبل أن تلمس الأرض ، تطلق صواريخ الألوان .

( ٢ )

فجأة ترتج محب كلها ، هرب « الرعد » . حصان السوالمة أفلت . جاءه  
« الدور » . ركبته « النوبة » .  
أكيد عائد من الملاحه .

فلتُقل فوراً كل الأبواب ، وليلزم كل بيته ، ولتتم كل أم على أبنائها ، ومن بعد  
عن بيته ، فليدخل من أقرب باب ، أو يصعد نخلة .

الحصان يشرس بعد العودة من الملاحه ، لا يعود إلا مصاصة . يظل يرفس  
عريش<sup>(١)</sup> العربيه بجنون وسُعار ، حتى يندلع من حافره الشرار ، فيشب ويصهل ،  
ومحب تردد الأصداء ، ثم يندفع كالإعصار .

---

( ١ ) مقدمة العربيه الكرو ، حيث يجلس العريجي ، وإلى جواره مخلاة الحصان لو  
الحمار .

ومحب قلبها مع وابور الطحين ، يدق ، كلها من فوق السطوح ، وفى النوافذ  
لمن بيته من دورين ، أو متعلقين من فوق بأعجاز التخيّل .

### ( ٣ )

الملح رصاص ثقيل مجهد ، لا يخرج إليه فى الفجر الأول إلا الحصان القوى  
العفى المعلوف .

وبكمية الفول فى العلف ، يدرك الحصان سلفا ، أخرج أم هو من القاعدين .

### ( ٤ )

العجيب أن حصان السوالمة كلما أتى على طريق ، وانتهى منه إلى الغيطان ،  
وكل الطرق تفتح فجأة على الغيطان ، وأفاق الخضرة ، وسماوات الزرقة ،  
وطقطقة مفاصل الحرية ..

.. نظرة خاطفة ليس إلا . ومضة . يختلج يشب يصهل ، لينقلب على عقبيه  
أكثر عتوا ، كالهارب من اللهب إلى قلب محب من جديد ، دون أن يخطئ مرة إلى  
رحاب الآفاق .

### ( ٥ )

علق أبوقردان الحكيم يوما ، وساقاه غارقتان فى مَطلق مياه الرى : أكل هذا  
الجبروت دون الخلاص ؟ ! أه لو أدرك أو حتى وعى !

### ( ٦ )

وإلى عريشه يعود ، عبدا مسالما مضنى شقيا مُعَنَّى ، يتمسح به كالضريح .  
وإلى نير مخلاته المحوَّجة يعود . يسلم لها بوزه ، وطول الليل يجرش ..  
والذليل كالمسطول يأكل التل .

### ( ٧ )

وينفخ فيطير القشر ، ومن فول العلف تزحف طوابير السوس . تنخر ، والجسد .



العاتى ينقُب الجبل لبناء معبد ، أو إقامة هرم شاهد قبر ، أو حفر قناة لعبور السياط .

وينفخ فيطير التبن والرجيع والردة ، ويَيين غلام يفرقع بالسوط ، فتتحرك دواليب السخرة .

وينفخ فيظهر على الفودين أختام العبودية ، التى تدمنه ويدمنها ، مع الاحتفاظ بحق الفلفصة منها فى حدود .

وطول الليل يجرش الفول ، احتشادا لعريش ملح جديد .

## إمضاء

وترد أول نحلة . إنها « شغالة » بالطبع ، وفى إثرها زميلات . وهى تنز كالطائرة ، وتحوم حول الزهر . ثم تحط .

وترد نحلة غليظة ذكر .

والشغالة تنحنى داخل الزهرة ، كأنها الشادوف وهو يغرف الماء . إنها فى سجود عميق .

ترى ما تقول الشغالة لقلب الزهرة ، وهى تبادلها الوظائف الحيوية التى نسميها المنافع ؟ الرحيق مقابل حبوب اللقاح ؟

زعق الذكر للشغالة التى تُشَدِّف<sup>(١)</sup> : يا هذه ، أليس فى حياتك إلا العمل ؟ !

ردت الشغالة وهى ترفع قامتها ، كمن يقول بعد الركوع « سمع الله لمن حمده » : إيه ؟ ما تقول ؟

قال : يا شيخه ، القُطى نفسك ، وانظرى حولك ، ففى الحياة شىء اسمه العدالة .

قالت وهى تغيب فى حلق الزهرة : أهى شىء يؤكل ؟ ما الحياة يا مجنون إلا عمل .

---

( ١ ) أى تطلع وتنزل كالشادوف .

زعق الذكر : اسمعيني فالأمر هام جدا ، لأنه عن مصير العمل ، عن العامل الذى ليس آلة ، عن الاستغلال .

أطلت بحدة لتقول : أنت معطل ، لا منك ولا كفاية شرك .

قال وهو يتخذ وضع الهبوط : أتدركين أين يذهب عسل الخلية ؟

قالت : حسبي أن أعمل .

قال بحدة : حتى لو كان عملك ساقية جحا ؟ هكذا أنتن أيتها العاملات ، الا تفكرن فى هذا التنظيم الإدارى المحكم للخلية ، الذى يدور على الفوضى ؟

كانت الشغالة ترتب حملتها للرحيل ، وتطمئن إلى امتلاء السلّتين بالزوج الخلفى من أرجلها بحبوب اللقاح ، والشغالات يفدن ، عندما قال : إنه وحده سالب عسلكن ، الإنسان هو الناهب المستغل .

سألت نحلة فى حسم : أقصر يا هذا ، ما تريد منا ؟

قال : أن تُضربن عن إنتاج العسل ، وحينما يرى الإنسان ألا عائد ، يترككن لحياتكن ، مرة واحدة تحزركن إلى الأبد .

زعقن فى نفس واحد : نضرب ؟ هل التأت عليك عقلك ؟ وما نفعل ؟ إذن تتوقف الشمس والليل والنهار عن العمل .

قال الذكر نافذ الصبر : تعشن وتمتن إماء ، ألم تسمعن عن شىء اسمه عدالة ؟

ردت نحلة : من لا يعمل ، يتكلم ويتفلسف . هذه هى المسألة .

قالت أخرى : حضرك تبغى تغيير نظام الكون ! الموت لك .

قال : لى أنا ؟ ! أم للإنسان الذى يسلبكن عملكن ؟ !

قالت شغالة : أنت ثرثار بشكل !

قال : آلاف مؤلفة من الإماء بالخلية ، حينما أحاول أن أهديهن إلى تغيير نظام حياتهن ، فالموت لى .

قالت واحدة بغيظ : أتغير يا مفعوص من الناموس ؟ !

قالت الأخرى ساخرة : أتغير يا لوح من اللوح المحفوظ ؟ !

وزعقن جميعا : مارق .

قال الذكر وهو يرقص فى دائرة حادة ، خارجا عن طوره : « هاو او ، . ث  
هدا . إذن لا فائدة ، فلأترككن للمستغل الأعظم ، أنتن كالقطاط يحبين خناقهن

ولم يكد يكمل ، فقد وصل سرب من الحرس الملكى للخلية .

فى لمحة هوى الذكر جثة .

واندفعت الشغالات داخل الزهر ، وهن يسدن عليهن غمائهن<sup>(٢)</sup> .

رقم الإيداع : ٩٩٠٦ / ١٩٩١

I.S.B.N

1 - 0135 - 07 - 777

---

( ٢ ) كفامة الثور المعلق بالساقية .



## الفهرس

ص	هـ	محييات « ١ »
١٢٨	٦	فى سيرة محب
١٣٤	١٩	ياسين الفران
١٣٩	٣٠	زد
١٤١	٣٥	وتريات الغاب
١٤٣	٤٨	مابسش
	٦٠	مسك الختام
١٤٧	٦٣	محييات « ٢ »
١٤٨	٦٤	المفتاح الضائع
١٤٩	٧٠	أبوفصادة
١٥١	٨١	زفاف الملائكة
١٥٤	٨٧	أبوهبط
١٥٦	٩٧	ظهرة الهبله
١٥٨	١٠٢	الأحمر والأخضر
١٦١	١١١	فشار محب
	١١٩	من كفته خرج
	١٢٤	القرطاس الفارغ
		محييات « ٣ »

انتهى بحمد الله وتوفيقه

# هذه الرواية

## بدر الديب

"محب" قرية من قرى مصرنا الحبيبة مثل آلاف القرى ، وكل قرية فى مصر لها اولادها وبناتها ، الذين يحبونها فوق كل حب ، ويعرفونها وراء كل معرفة ، ويصنعون من تاريخها ذاكرتهم ووعيمهم ، فتبقى فيها مهما تكاثر فوقها من تجارب ومعارف .

وقد لانستطيع أن نجد مكان محب على خريطة رسمية ، وخاصة بعد ان زحفت عليها المدينة التى اكلتها ، ولكن المدينة لم تستطع أن تغيب من محب "الايقاع والملاح والنفس والنكهة" الغائرة فى نفوس ابنائها ، وهكذا بقيت محب - حتى وإن زالت من على الخرائط - حية نابضة ، لم يستطع الزمن وتجارب الحياة أن تبدد من حضورها شيئاً ، إنها مازالت هناك على غير مبعدة من دمياط على التربة الشرقاوية ، بغابها الكرومى والريحي ومصرفها وبيوتها ، بل وناسها الذين لم يأكلهم الزمن ، وإن اكلهم التراب .

غير أن "محب" قد تحقق لها فوق ذلك امر فريد يحق لها أن تختال به ، وقد يظل يميزها الى الأبد ، ويبقيها خالدة ، وكأنها اثر من آثارنا العتيقة ، لقد قبض الله لمحب ابنا من ابنائها ، جرد نفسه فى حب كحب الصوفية والاولياء ، ليكتب لها سيرة فريدة فذة ، اتوقع لها أن تبدأ تيارا ادبيا فى كتابة السيرة لقرى مصر ، وأن تصبح عملا فنيا جليل القدر فى ادبنا المعاصر ، لما تحقق فيها من خصائص فنية ، وتجارب تعبيرية لغوية ، تفتح ابوابا وطرقا واسعة للتعبير والكتابة الفنية ، وتغرى ابناء وبنات قرى مصر ، بالعودة الى قراهم فى ذاكرتهم ووعيمهم ، لبعثها حية نابضة كما فعل عبدالفتاح الجمل "لمحب" .

قد تنتمى السيرة التى كتبها المؤلف لقريته الى فن القصة القصيرة او الرواية ، ولكنها فوق ذلك تسجيل حى للقرية بتاريخها وجغرافيتها ، لسكانها من "بشر وطير وحشر" وللغاتهم جميعا ، وهى ككل السير واعمال التاريخ ، تلقى اضواء على المعتقد الدينى ، وعلى التغييرات الاقتصادية والاجتماعية ، وعلى نمط العلاقات الانسانية والعديد من العادات الشعبية ، كما ترد الكثير من كلمات اللهجة المحلية الى الفصحى ، مما يعتبر فى حد ذاته مادة علمية ثمينة . وقد يحتاج هذا الجانب التاريخى الاجتماعى للعمل ، الى مؤرخ أو باحث اجتماعى لغوى ، ليعزز قيمته واثره ، ولكننى لا اطمع فى هذه الكلمة إلا الى الاشارة الموجزة ، للخصائص الفنية الفريدة لهذا العمل ، والى ما اعتقد انه انجاز فنى هام ، وإن كانت جذور هذه الخصائص وهذا الانجاز ، ممتدة ومتحققة فى اعمال عبدالفتاح الجمل السابقة ، وخاصة رواية "الخوف" ورحلته الصحراوية المعنونة "أمون وطواحين الصمت" ، وكتابه "وقائع عام الفيل .. كما يرويها الشيخ نصر الدين جحا" .. وفى هذا العدد الكبير من الكتابات الادبية



الآخري ، التي تربي عليها جيل من أجيالنا الأدبية ، والتي كانت تنشر بانتظام في جريدة المساء في عهدها القديمة .

★ ★ ★

يتميز فن عبدالفتاح الجمل بثلاث خصائص أساسية ، استطيع أن أخصها بإيجاز شديد فيما يلي :

□ نظرة خاصة ورؤية متفردة للجسم الانساني ، وللحياة البشرية داخل الطبيعة بمظاهرها المتعددة ، توحد بين الانسان وبيئته ، وتجعل من جسده ومشاعره وعواطفه ، بل وافكاره ، ظواهر طبيعية مطابقة لما في هذه البيئة من مظاهر طبيعية من ناحية حيويتها وشكلها وفعاليتها ، وما ينطبق على الجسد البشري ، ينطبق في هذه النظرة على المصنوعات الانسانية ، من مباني وادوات وغير ذلك من عدة الحياة والعمل اليومي ، كلها تتوحد ، وكلها تحمل دلالات مشتركة ، وسوف يتعلم القارئ الكثير من هذه النظرة ، وسوف يدرك أن وراء هذا التوحيد محبة فريدة ، ومعرفة عميقة بالنفس البشرية ، وبالطبيعة في جميع صورها .

□ اما الخاصية الثانية ، فتحدد طبيعة الجملة الفنية عند الكاتب ، وتضع خصائص التشبيه والاستعارة والكناية عنده ، وعلى الرغم من انها مستمدة من الخاصية الاولى ، إلا انها امتداد وتوسع وتطبيق لها ، ففي فن عبدالفتاح الجمل تعتبر الحواس الخمس الطريق الأصلي للمعرفة ، ولهذه الحواس من المكانة مايفوق في قدره مكانة العقل والنظر المجرد ، ويمارس الكاتب حواسه الخمس في فنه ، مجتمعة دائما متآزرة ، تتبادل القوى والدلالة ، فهو يلمس اللون ، ويسمع الرائحة ، ويستطعم المنظر ويذوقه ، ويزن الحركة بجميع الحواس ، ويحيل الفكر والعاطفة والشعور الدفين الى محسوسات تجريبية ، تجعلها في نفس مباشرة الاحساس ، وهذا طريق واسلوب ساحر لاينفد جماله أو ثراؤه .

□ اما الخاصية الثالثة ، فهي في نظري اعقد واصعب على الامساك بها ، وإن كانت نتيجة لرؤيته ولطريقته في المعرفة ، فالكاتب يقدم دائما "التطبيق العملي" على حد تعبيره ، ويقصد به التجربة المباشرة عن أي نظرية وأي تفسير وتحليل ، فهو يرفض التبرير والتحليل والتفسير المبني على النظرية ، لانه يريد اساسا ان يمسك بالحياة ، وأن يصنع بالفن حياة موازية لها ، وهذا همه الاول ومقصده الأعلى .

وهكذا ، ومن ممارسة هذه الخصائص تصبح سيرة محب عملا فنيا فريدا ، يمسك بالحياة وبالطبيعة امساكا يجعل الحياة طبيعة ، والطبيعة حياة ، ويحيلهما معا الى مادة فنية واحدة تتلقاها النفس ، فتعيشها لتبقى فيها وكأنها تجربة مباشرة ، أو ذكرى عزيزة غائبة ، والكل الموحد "شارب من بعضه ، ومن مسقاه واحدة" ..

روایات الهلال تقدم

# منطق الف

تأليف

ف . س . نايبول

ترجمة

محمد الجوادى

تصدر : ١٥ فبراير ١٩٩٢



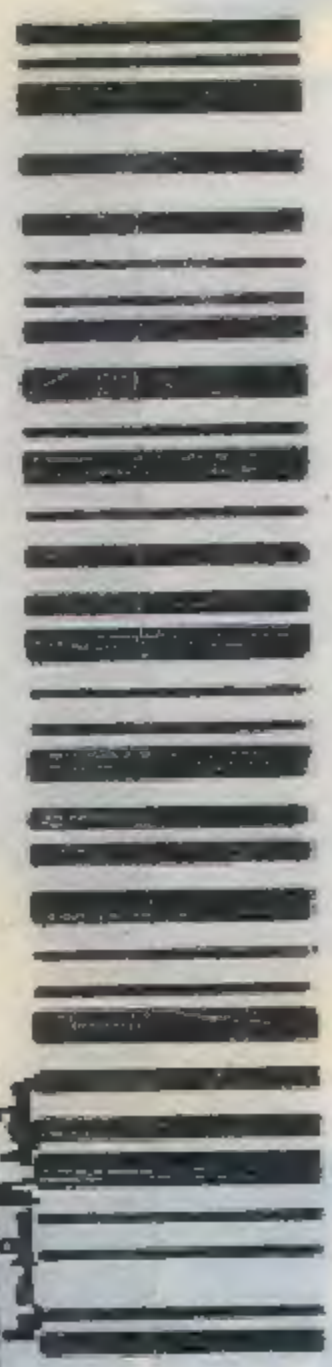
المنظف الصنّاعي

نيون

ذو البرغوة الوفيرة  
والرائحة الذكية



C  
736  
3m  
2



0616041

إنتاج :  
شركة اسكندرية للزيوت والصابون